ذ.مروان مودنان

العرب

الأساطير و الملاحم

- ✓ الكتاب : العرب : الأساطير والملاحم.
- ✓ المؤلف : مروان مودنان.
- ✓ الطبعة الأولى : 2019 الدار البيضاء
- ✓ رقم الإيداع القانوني : MO19922019
- ✓ ردمك : 978-9920-37-477-4.

مقدمة

يعتبر التراث بكل تنوعاته، رافدا مهما من روافد إغناء ذاكرة الشعوب، لما يحتويه من قيم متنوعة يمكنها أن تطور المجالات الاجتماعية والفكرية والاقتصادية للمجتمع، خاصة إذا تم استغلالها بمنطق جاد وهادف، وبأساليب وتقنيات ومناهج دقيقة ضمن مخططات وبرامج تنموية.

وإن مسؤولية جمع التراث وتوثيقه، تلقى على عاتق الباحثين والدارسين، فإذا كانت النظرة السائدة للتراث الشعبي نظرة احتقار ودونية، مقارنة بالأشكال الأخرى، فإن من الواجب علينا نحن، الباحثين فيه والدارسين له، أن نحلل ظواهره ضمن إشكاليات علمية، تفتح الآفاق وتكون همزة وصل بين حاملي التراث والمادة التراثية.

إن النص التراثي بالنسبة للباحث في التراث الشعبي، يجب أن ينجز، أي أن يتحقق ويصبح ملموسا على المستوى المادي، وهذه المهمة تفترض تدخل إجرائيات : الجمع والتدوين والتحقيق، وهذا يفترض تداخل مجموعة من المختصين، بدءا بالباحث في النص التراثي والعالم اللغوي والفيلولوجي أحيانا.

والنص التراثي، لا يوجد ولا يتحقق إلا من خلال جملة من الروايات للنص الواحد؛ يمكن أن نتكلم عن نص نواة، لكن تعدد الروايات يجعل هذا النص يأخذ تفريعات وتلوينات من حيث اللغة والشخصيات والمعجم والصور حسب سياق التداول، وما يميزه

من وقائع وعلامات. فهذا النص يمكن أن يحمل بعض العناصر التكوينية مثل المعجم والصور التي تكون مخالفة لما نجده في منطقة أخرى، في نفس الوقت لا يمكن أن نصف رواية معينة من الروايات بأنها الرواية الحجة.

ولهذا فعلى المهتمين بالظواهر التراثية القيام بمهمة أساسية، والتي يعبر عنها بإشكالية توثيق التراث الشعبي، ذلك أنها تفصل بين الداء والدواء، فمشكل التراث الشعبي، هو أنه في مجمله شفاهي، هذا بالنسبة إلى نوع من أنواع التراث ، الذي تندرج فيه الأغاني والأمثال والنكت والأحاجي...، إذن فهو أكثر عرضة للضياع والاندثار، إذا لم يتم جمعه، وتصنيفه وتوثيقه، وبذلك يحفظ جزء مهم من تاريخ وحضارة الأمة، وبالتالي إنعاش الذاكرة المفقودة، ونفض الغبار عنها، قصد تعريفها وطنيا و دوليا.

إذن ،هناك حاجة ضرورية الآن، للقيام بتوثيق علمي متقدم، ورصد لعناصر التراث ، سيرا على نهج التجارب الرائدة، واعتمادا على كل الوسائل المتاحة، من أجل تقديمه إلى الدارسين والباحثين، للاستفادة منه، وإبراز تجذر الهوية و تفاعلها المشترك مع باقي الهويات الأخرى.

وهذا الكتاب هو تجميع لبعض عناصر الذاكرة العربية الجاهلية تحديدا، من أساطير و حكايات و أحداث و تصورات للأحساب و الأنساب التي شكلت ركيزة مهمة من ركائز المجتمع العربي آنذاك، إضافة إلى استحضار بعض أهم أيام العرب المشهورة، التي نهدف

من خلالها إلى زرع قيم الاعتزاز بالثقافة و الهوية لدى القراء.

الأسطورة :

أجمع الدارسون لعلم الأساطير ، أي الميثولوجيا ، على الطابع الاعتقادي والإيماني للأسطورة ، مع ما يحمله ذلك من قداسة . تقول أديث هاملتون الاختصاصية في الأساطير الإغريقية " إن الأسطورة ماهي إلا تعليل لإحدى الظواهر الطبيعية مثل كيفية خلق هذا الشيء أو ذاك في الكون ، كالناس والحيوانات ، والأشجار ، والشمس ، والقمر والنجوم والزوابع ، وباختصار كل ماله وجود ، وكل ما يقع في هذا الكون الفسيح . والأساطير ماهي إلا العلم القديم ، وهي نتاج محاولات الإنسان الأول لتعليل كل ما يقع تحت بصره وحسه " .[1]

أما بارتيه فقد عرّف الأسطورة في كتابه " علم الأساطير" بأنها أقدم لغة وطريقة للاتصال ، من حيث كونها قول تلقائي بلغة سائغة بين عناصر اجتماعية معينة ، ولهذا فإنها مجهولة الهوية ، والأصل ، غامضة التاريخ والمكان .[2]

والأسطورة بهذا المعنى تكتسب قداستها من كون أبطالها آلهة ، وشبه آلهة ، ومن قوة الاعتقاد بهذه الآلهة ، وبأفعالها ، وأقوالها ، وإن كانت قد توارت من الذهن الجمعي للناس

---

[1] انظر الهيتي ، هادي نعمان (1977) " أدب الأطفال " ، منشورات وزارة الإعلام ، العراق ، ص 191 .
[2] العاصي ، عربي (1981) " الحيوان في قصص الأطفال " ، الكرمل للدراسات والطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق ، الطبعة الأولى ، ص 29 .

بعد ظهور الأديان السماوية الثلاث والفلسفات الوضعية الحديثة ، وتطور العلوم الإنسانية والطبيعية ، إلا أنه لازال لبعض الاعتقادات والعادات والطقوس الأسطورية سطوتها على أذهان البعض ، ومن هنا تتبدّى تقليدية الأسطورة بانتقالها من جيل إلى جيل ، بالرواية الشفهية ، مما يجعلها ذاكرة الجماعة التي تحفظ قيمتها وعاداتها وطقوسها وحكمتها ، وتنقلها للأجيال المتعاقبة وتكسبها القوة المسيطرة على النفوس .[1]

الحكاية الشعبية والحكاية الخرافية:

الحكاية الشعبية هي مرويّة شعبية ، نسجها الخيال الشعبي ، وتداولها الناس جيلا بعد جيل مضيفين لها ومحورين فيها ، وهي كما تعرفها المعاجم الألمانية "الخبر الذي يتصل بحدث قديم ينتقل عن طريق الرواية الشفوية من جيل لأخر"، أو كما تصفها المعاجم الإنجليزية "حكاية يصدقها الشعب بوصفها حقيقة ، وتتطور مع العصور وتتداول شفاها ، كما أنها قد تختص بالحوادث التاريخية أو الأبطال الذين يصنعون التاريخ" . [2]

والحكاية الشعبية لا تحمل طابع القداسة ، وتقف في موضوعاتها عند حدود الحياة اليومية والأمور الدنيوية العادية .

والخرافة كالحكاية الشعبية لا تحمل الأخرى طابع القداسة ، بل هي بطولات مليئة

---

[1] السواح ، فراس (1981) " مغامرة العقل الأولى – دراسة في الأسطورة – سوريا وبلاد الرافدين " سومر للدراسات والنشر والتوزيع ، نيقوسيا - قبرص ، الطبعة السادسة ، ص 21 .

[2] بعلوشة ، إ إبراهيم محمد ، " بحث حول الفن الشعبي وأثره في التكوين النفسي للطفل "، وزارة الإعلام ، الهيئة العامة للاستعلامات ، مصر ، ص 20 .

بالمبالغات والخوارق ، إلاّ أن أبطالها الرئيسيين هم من البشر أو الجن ولا دور للآلهة فيها[1].

وفي الخرافات يتجلى – بوضوح – المنزع الأخلاقي ، ويتحدد الصراع بين الخير والشر ، الملاك والشيطان أو الجان ، العفاريت والإنسان ، الساحرة الشريرة والفتاة الجميلة ، الفارس والوحوش ، وتكون الغلبة فيها دائما لصالح الخير ، وعادة ما تكون النهاية سعيدة وتعكس الحكايات الشعبية حاجات الإنسان النفسية والانفعالية حيث تعوض عن إحساسه بالقهر والضعف أمام الطبيعة والسلطة ، أي كان نوعها ، كما أنها تعكس التوق والحلم للتسيد ، ويستعان لذلك با لحكايات الخرافية ، و تحديدا بالجن والعفاريت والغيلان والحيوانات المفترسة ، وأحيانا بقوى الطبيعة نفسها كالسيول الجارفة والبراكين والزلازل ، إلى جانب بعدها الترويحي والترفيهي .

الأساطير والحكايات والأطفال :

أوضحت التعريفات الخاصة بالأسطورة والحكاية الشعبية والخرافة ، أنها جاءت لتعبّر عن ضرورة وحاجة موضوعية ، وهو ما ينأى بها عن القصدية ، أي أنه لم يتم التعامل معها في الأصل كفن ، كما يعني في وجه من وجوهها بأنها ليست موجهة للأطفال ، ولا تعكس اهتماماتهم ، ولا تلبي احتياجاتهم ، بل إن الصياغة الرفيعة واللغة الفصحى للأسطورة تجاوز القدرات ا للغوية للطفل ، ناهيك عن طابعها التجريدي ، وإذا كان الأطفال

---

[1]السواح ، فراس (1986) ، مرجع سابق ، ص 22 .

ينجذبون كثيرا إلى الحكايات والخرافية تحديدا فلبساطتها ولغرائبية أحداثها الزاخرة بالبطولات الخارقة والعجائب وأساليب التشويق المختلفة الذي يبتدعها الرواة .

وتكمن أهمية هذه الإشارة في كسر الوهم المسيطر على أذهان البعض ، بأن الأساطير والحكايات الشعبية والخرافة صناعة خاصة للأطفال ، منطلقين في ذلك من غرائبية أحداثها وغرقها في الفنتازيا. .

ويشير الدكتور الهيتي في هذا الصدد إلى أن أهم الحكايات كانت متعلقة بثيمات مثل الساحرة الشريرة والفتاة الجميلة ، الفارس والوحوش ، وتكون الغلبة فيها دائما لصالح الخير ، وعادة ما تكون النهاية سعيدة ، كما يشير في هذا الصدد إلى أنه لا يوجد تراث من الحكايات الشعبية التي كان يقدمها الأقدمون إلى الأطفال ويعود هذا إلى أن الكبار كانوا يتناقلون حكاياتهم ويعنون بها لأنها تعبّر عن حياتهم وحدهم بينما كانت حكايات الأطفال تظهر في كل عصر ، ولكنها سرعان ما تنسى فتموت ، ولم يبق إلاّ القليل من بين ذلك الفيض الذي يمكن القول إن الإنسان صاغه للأطفال . [1]

---

[1] الهيتي ، هادي نعمان (مارس 1988) ، " ثقافة الأطفال " ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون ، الكويت ، العدد (123) ، ص186 .

الساميون:

الساميّة اسم يُطلَق على مجموعة من الشعوب في الشرق الأوسط، يتكلّمون بلهجاتٍ مُتقاربةٍ تطوّرت إلى لغاتٍ، سُمِّيت فيما بعد بالساميّة. قُسِّمت اللغات السّاميّة حسبَ التوزيع الجغرافيّ إلى شماليّة وجنوبيّة، وقد قُسِّمت الشّماليّة إلى شرقيّة وهي اللغة الأكديّة التي تضمّ كلّاً من البابليّة والآشوريّة، وأخرى غربيّة وهي اللغتان الأوغاريتية، والكنعانيّة التي تضمّ كلّاً من العبريّة، والفينيقيّة، والمؤابيّة، بينما قُسِّمت الجنوبية إلى عربيّة جنوبيّة وهي لغة أهل اليمن ثمّ اللغة الحبشيّة، وإلى عربيّة شماليّة هي اللغة العربيّة الفُصحى.[1] أصل الساميّين اختُلِف في الموطن الأصليّ للناطقين باللغات الساميّة، لكن اتّفق الباحثون على أنّ الساميّين أقاموا في بداية وجودهم في الجزيرة العربيّة، ثمّ بدأوا بالهجرة منها بسبب الجدب، وأول من رحل عن الجزيرة العربيّة كانوا الأكديّين، فتوجّهوا إلى العراق وأقاموا فيها مع السومريّين، بينما توجّه الآشوريّون شمالاً إلى منطقة ما بين النهرين، ثمّ تبعهم في حركات الهجرة الكنعانيّون، فتوجّهوا إلى الشام والسواحل الشّرقيّة للبحر الأبيض المتوسط، أمّا الآراميّون فتحرّكوا إلى باديتَي العراق والشّام، وتمثّلت الحركة الأخيرة بالعرب الجنوبيّين الذينَ يتفرّع عنهم الحبشيّون، فنزلوا على شواطئ المحيط الهنديّ، ومنهم من نزلوا جنوباً في

---

[1] شوقي ضيف (2008)، تاريخ الأدب العربي، مصر: دار المعارف، صفحة: 22-26.

تهامة اليمن ثمّ هاجرت جماعات منهم إلى السواحل الإفريقيّة، واستقرّوا في هضبة الحبشة.[1] وقد سُمِّي الساميّون بهذا الاسم نسبةً إلى سام، الذي ورد اسمه في كتاب التوراة في الإصحاح العاشر من سفر التّكوين؛ إذ ذُكِر هذا الاسم فيه للدلالة على مجموعة من الأنساب المنحدرة من سام بن نوح، وتضمّ الأراميّين، والآشوريّين، والعبريّين، الذين كانوا يقيمون في الجزيرة العربيّة، وبلاد الرّافدين، وسوريا، وفلسطين.[2] وبدأ استعمال كلمة ساميّ في العصور الحديثة عام 1781م؛ لتربط مجموعة من الشعوب التي تشترك في اللغة والتاريخ والأنساب، ولا ينبغي أن يعتقد البعض أنّ كلمة ساميّ ترتبط بدلالة عنصريّة، فما هي إلا مصطلح يدلّ على مجموعة شعوب ذات أصل واحد.[3] وبدأت الشعوب الساميّة تفرض كيانها منذ بداية الهجرات التي قامت بها إلى بلاد الرافدين، وذلك منذ الألفيّة الثالثة قبل الميلاد، ومع الهجرات المُتتابعة للساميّين تشكّلت عدّة شعوب ساميّة موزّعةٍ في منطقة الشرق الأوسط،[4] ومن أهمها الشعوب العربية.

---

[1] شوقي ضيف (2008)، تاريخ الأدب العربي، مصر: دار المعارف، صفحة: 22-26.

[2] سبتينو موسكاتي، ترجمة: د. السيّد يعقوب بكر (1986)، الحضارات السامية القديمة، بيروت: دار الرقيّ، صفحة: 42-43، 61. بتصرّف

[3] سبتينو موسكاتي، ترجمة: د. السيّد يعقوب بكر (1986)، الحضارات السامية القديمة، بيروت: دار الرقيّ، صفحة: 42-43، 61. بتصرّف.

[4] حسن ظاظا (1990)،الساميّون ولغاتهم، دمشق: دار القلم، بيروت: الدار الشاميّة، الطبعة الثانية، صفحة: 9.

الفصل الأول : الأصل و المعتقد و الأساطير.

أصل العرب :

العرب أُمّةٌ من الناس نشأت في شبه الجزيرة العربيّة، وهي ساميّة الأصل، والعَرَب جمع عربيّ، ومن جموعها: أعرُب، وعُرُب، وعُروب، ويُقال: (عَرَبٌ عرباء: أي صُرَحاء خُلّص)،1 أمّا أصل معنى كلمة العرب فيعني الماء الصّافي شديد الجَرَيان.2 وقد اشتُهِر العرب بأنّهم أهل الفصاحة والبيان؛ ولذا سموا بهذا الاسم؛ حيث يعني أيضاً الإبانة، فيُقال: أعرَبَ الرّجل عمّا في داخله؛ إذا كشَفَه وأبانَ عنه.3 و(عرّب الرجل كلامه؛ أي هذّبه من اللحن)، وجعله واضحاً بيّناً لا لبس فيه كالماء العرِب لشِدّة صفائه.4

قال الجوهري في صحاحه5: "العرب جيل من الناس والنسبة إليهم عربي بيْن العروبة، وهم أهل الأمصار، والأعراب منهم سكان البادية خاصة، وجاء في الشعر الفصيح: الأعاريب، والنسبة إلى الأعراب أعرابيّ لأنه لا واحد له، وليس الأعراب جمعًا لعرب كما كان الأنباط جمعًا لنَبَط وإنما العرب اسم جنس."

ثم إن كل من عدا العرب فهو عجمي سواء الفرس أو الترك أو الروم أو الفرنج وغيرهم، وليس كما تتوهمه العامة من اختصاص العجم بالفرس، أما الاعجم فإنه الذي لا يفصح في

---

[1] تعريف ومعنى عرب في معجم المعاني الجامع" ، www.almaany.com، اطّلع عليه بتاريخ 17-11-2017، بتصرّف

[2] أحمد محمد أمين (5-3-2009)، "العرب والعاربة والمستعربة أصل التسمية وتاريخها "، دورية كان التاريخية، العدد الثالث، صفحة: 80. بتصرّف.

[3] عبد الرحمن بن خلدون (2001)، تاريخ ابن خلدون ، بيروت، لبنان: دار الفكر ، صفحة: 16-17، جزء: 2. بتصرّف.

[4] عبد الرحمن بن خلدون (2001)، تاريخ ابن خلدون ، بيروت، لبنان: دار الفكر ، صفحة: 6-8، جزء: 2. بتصرّف.

[5] الصحاح 178/1.

الكلام وإن كان عربيًا [1].

أما أنواع العرب فقد اتفقوا على تنويعهم إلى نوعين:

- عرب عاربة.
- عرب مستعربة.

فالعاربة هم الخُلَّص منهم أي العرب الأُوَل الذين فهَّمهم الله تعالى اللغة العربية ابتداء فتكلموا بها فقيل لهم عاربة، وربما قالوا[2]: العرب العَرباء.

أما العرب المستعربة هم الذين ليسوا بخُلَّص أي الداخلون في العروبية بعد العُجمة فقيل لهم مستعربة، وقيل لهم[3]: المتعربة.

ثم اختلف في العاربة والمستعربة فذهب الطبري وغيره إلى أن العاربة هم: عادٌ وثمود وطسْمٌ وجديس واميم وعبيل والعمالقة وجُرهُم وحضرموت وحضوراء وبنو ثابر والسلف ومن في معناهم، وأما المستعربة فهم بنو قحطان بن عابر وبنو إسماعيل عليه السلام لأن لغة عابر وإسماعيل كانت عجمية إما سريانية وإما عبرانية فتعلم بنو قحطان العربية من العاربة ممن كان في زمانهم، وتعلم بنو إسماعيل العربية من جرهم ومن بني قحطان حين نزلوا عليه وعلى أمه بمكة المكرمة.

وذهب اخرون [4] منهم صاحب تاريخ حماه إلى أن بني قحطان هم العاربة وأن المستعربة هم بنو إسماعيل عليه السلام فقط، والذي رجحه صاحب العبر الرأي الأول محتجًا بأنه لم يكن في بني قحطان من زمن نوح عليه السلام وإلى عابر من تكلم بالعربية وإنما تعلموها نقلاً عمن كان قبلهم من عاد وثمود ومعاصريهم ممن تقدم ذكرهم.

---

[1] نهاية الأرب ص/18.

[2] الصحاح 178/1.

[3] الصحاح 179/1.

[4] نهاية الأرب ص19

ثم قسم المؤرخون أيضًا العرب إلى قسمين:

- عرب بائدة.

- عرب غير بائدة.

فالبائدة هم الذين بادوا ودُرست آثارهم كعاد وثمود وطسم وجديس وجُرهم الأولى، ويلحق بهم مدين فإنهم ممن ورد في القرءان بهلاكهم.

وأما العرب غير البائدة فهم الباقون في القرون المتأخرة بعد ذلك كجرهم الثانية وسبإ وبني عدنان، ثم منهم من باد بعد ذلك كجرهم ومن تأخر منهم إلى زماننا كبقايا سبإ.

العرب العاربة والعرب المستعربة:

أما مصطلح "العرب العاربة" و "العرب المستعربة"، فهما على ما يتبين من روايات علماء اللغة والأخبار من المصطلحات القديمة التي تعود إلى الجاهلية، ولكننا لو درسنا تلك الروايات خرجنا منها، ونحن على يقين بان الجاهليين لم يطلقوهما بالمعنى الذي ذهب إليه الإسلاميون، بل قصدوا بهما القبائل البعيدة عن أرض الحضارة، والقبائل القريبة منها، فقد عرفت القبائل النازلة ببلاد الشام والساكنة في أطراف الإمبراطورية البيزنطية ب "المستعربة". و "المستعربة" مصطلح أطلق على هذه القبائل و على القبائل النازلة في سيف العراق من حدود نهر الفرات إلى بادية الشام، فهو يشمل إذن القبائل النازلة على طرفي الهلال الخصيب وفي طرفي القوس الذي يحيط بحدود الإمبراطوريتين. ومن المستعربة غسان وإياد وتنوخ. وقد فضلت غالبية هذه المستعربة السكنى في أطراف المدن في مواضع

قريبة من البوادي والصحارى، عرفت عندهم ب "الحاضر"، فكان في أكثر مدن بلاد الشام حاضر يقيم به العرب من تنوخ ومن غير تنوخ.

وقد وجدت في تأريخ الطبري خبراً زعم أنه جرى بين "خالد بن الوليد"، وبين "عدي بن عدي بن زيد العبادي"، يفهم منه أن العرب: عرب عاربة وأخرى متعربة. وقد جرى بينهما على هذا النص و: "قال خالد: ويحكم: ما أنتم ؟ أعرب ؟ فما تنقمون من العرب ؟ أوعجم، فما تنقمون من الانصاف والعدل ؟ فقال له عدي: بل عرب عاربة وأخرى متعربة. فقال: لو كنتم كما تقولون لم تحادّونا وتكرهوا أمرنا، فقال له عدي: ليدلك على ما نقول: أنه ليس لنا لسان إلا بالعربية". فيفهم من هذا الحديث أن العرب: عرب عاربة و عرب متعربة. وهم أناس تعربوا فصاروا عرباً. وهو كلام معقول مقبول، ولا سيما بالنسبة إلى الحيرة والعراق وبلاد الشام، حيث تعرب فيها كثير ممن لم يكن عربياً في الأصل فصاروا عرباً، لسانهم لسان العرب. ولا يفهم من هذا الكلام بالطبع تقسيم العرب بالمعنى المفهوم عند أهل الأخبار والتأريخ، أي عرب قحطانيون وعرب عدنانيون. وكل ما قصد به إن صح هذا الكلام حقاً تعنيف وتأنيب لعدي بن عدي بن زيد على وقوفه هو و قومه و أهل الحيرة موقفا معاديا للمسلمين، و تأييدهم للفرس و لدفاعهم عنهم، مع انهم عجم بعيدون عنهم. فكأنه قال لهم: لو كنتم عربا فكيف تؤيدون عجما علينا و نحن عرب؟ و "عدي" من العرب، و أبوه من تميم كما يقول النسابون. فهو ليس من العرب الاخرى

المتعربة، و لكن من العرب العاربة، أي عرب بالاصالة، كما إن خالداً نفسه من العرب العاربة، لأنه عربي اصلا وإن كان عدنانياً. فلم يقصد بالعرب العاربة هنا العرب القحطانيين، و لا بالعرب المتعربة العرب العدنانيين. فالعرب المتعربة اذن هم المتعربون من أهل الحيرة و غيرهم، ممن كانوا من النبط و بني إرم أو غيرهم ثم دخلوا بين العرب و لحقوا بهم فصار لسانهم لسانا عربياً مثل العرب الآخرين و تعربوا بذلك.

و يلاحظ أن "غسان" قد أدخلت في المستعربة، مع أنها من العرب العاربة، أي من العرب القحطانيين في عرف النسابين. و يراد في ذلك على أن مدلول العرب العاربة و العرب المستعربة لم يكن في الجاهلية و في صدر الإسلام بالمعنى الذي صار عليه عند علماء النسب و أهل الأخبار، و إن تخصيص العرب العاربة بالقبائل التي ترجع نفسها إلى اليمن، و العرب المستعربة بالقبائل التي يرجعون نسبها إلى عدنان، قد وقع من النسابين في أيام الأمويين فما بعد.

طبقات الأنساب:

قال النسابون: إن النسب إما إلى عدنان وإما إلى قحطان وفيهما جُمع نسب العرب، لكن لمّا كثُر الاختلاف في عدد الآباء وأسمائهم فيما فوق ذلك وشق على العرب تشعب المناهج وتصعب المسالك قطع الخوض فيما فوق قحطان وعدنان واقتصر على صحة ما دونهما.

وقد قسم النسابون طبقات الأنساب إلى سبع طبقات:

- الطبقة الأولى: الشعوب واحد شَعب وشِعب، قال تعالى: {يا أيُّها النَاسُ إنَّا خلقناكُم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شُعوبًا وقبائلَ لِتَعارفوا} [سورة الحجرات/13]، وهو الذي يجمع القبائل فلذلك سمي شعباً لأن القبائل تتشعب منه، ويشبه الرأس من الجسد كعدنان وقحطان.

- الطبقة الثانية: القبيلة وهي التي دون الشعب وانقسم فيها الشعب كربيعة ومُضر وحمير وقُضاعة والأزد وكِندة ولَخم وجُذام وأنمار وإياد وخَثْعَم وحضرموت، وهي التي تجمع العمائر، وإنما سميت قبائل لتقابل بعضها ببعض واستوائها في العدد، وهي بمنزلة العنق والصدر من الجسد، ويقال في القبيلة بالفتح وفي الجيل بالكسر.

- الطبقة الثالثة: العمائر واحدها عِمارة وهي ما انقسم فيه أنساب القبيلة كقريش وكنانة، وهي بمنزلة اليدين من الجسد.

- الطبقة الرابعة: البطون واحدها بطن وهو ما انقسم فيه أنساب العِمارة كبني عبد مناف وبني مخزوم، وقيل هو الذي يجمع الأفخاذ.

- الطبقة الخامسة: الأفخاذ واحدها فخذ وهو ما انقسم فيه أنساب البطن كبني هاشم وبني أمية، وفي هذه التسمية إشارة لقرب الفخذ من البطن.

- الطبقة السادسة: العشائر واحدها عشيرة وهم الذين يتعاقلون إلى أربع آباء، قال الجوهري: وعشيرة الرجل هم رهطه الأدنون، واستدلوا على ما ذكرنا بقوله تعالى: }وأنذِرْ عشيرتَكَ الأقربين{ الآية [سورة الشعراء/214] فدعا النبي صلى الله عليه وسلم قريشًا إلى أن اقتصر على عبد مناف وهم يجتمعون معه في الجد الرابع .

والعشيرة بمنزلة الساقين من الجسد يُعتمد عليهما دون الأفخاذ.

- الطبقة السابعة: الفصائل قال تعالى: }وفصيلتِهِ التي تُئويه{ [سورة المعارج/13]، وواحدها فصيلة وهي ما انقسم فيه أنساب الفخذ كبني العباس، وقيل: هي أهل بيت الرجل وخاصته، وهي بمنزلة القدم وهي مفصل يشتمل على عدة مفاصل وهم رهط الرجل وأسرته وهي بمنزلة أصابع القدم.

والأكثرون من النسابين قدموا الفصائل على العشائر.

فأما الرهط دون العشرة والأسرة أكثر من ذلك قال الله تعالى: }وكانَ في المدينةِ تسعةُ رهطٍ يُفسِدون في الأرضِ ولا يُصلِحون{ [سورة النمل/48]، وقال أبو طالب في قصيدته:

وأحضرتُ عندَ البيتِ رهطي وأسرتي *** وأمسكت في أبوابِهِ بالوصائلِ

عنى برهطه بني أبيه عبد المطلب وكانوا دون العشرة، وأسرته من بني عبد مناف الذين

عاضدوه على نصرة النبي صلى الله عليه وسلم.

وربما عُبر عن كل واحد من الطبقات بالحي إما على العموم مثل أن يقال حي من العرب، وإما على الخصوص مثل أن يقال حي من بني فلان.

وقد جمعها بعضهم بقوله :[1]

الشعبُ ثم قبيلةٌ وعِمارة *** بطنٌ وفخذٌ والفصيلةُ تابعَه

فالشعبُ مُجتمعُ القبيلةِ كُلها *** ثم القبيلةُ للعِمارة جامِعهْ

والبطنُ مجمعةُ العمائرِ فاعلمهن *** والفخذُ مجمعةُ البطون الواسعه

والفخذُ مجمَعٌ للفصائلِ هاكها *** جاءت على نسق بها متتابعه

فخزيمة شعبٌ وإنَّ كنانة *** لقبيلة منها الفصائل شائعه

وقريشٌ تُسمّى بالعِمارةِ يا فتى *** وقُصي بطنٌ للأعادي قامعه

ذا هاشمٌ فخذٌ وذا عباسُها *** أثرَ الفصيلةِ لا تُناطُ بسابعه

وفي هذه الطبقات وتقسيمها خلاف عند النسابة لكنهم أجمعوا على أن أعيان هذه الطبقات هم قريش فهم أشرف قبائل العرب ولهم الصدارة بينهم، وعلى أن لعدنان تنتسب العرب العدنانية من قريش وفروع كنانة ومن في معناهم.

---

[1] الشجرة الزكية ص/37-38.

تعلق العرب في شتى الأمصار بأرض الجزيرة:

ولا يخفى على القارئ الكريم أن العرب الأصليين الذين تفرقوا في شتى الأمصار أصولهم من الجزيرة العربية وإن بَعُد العهد، وهذا ما قرره من عنوا بالتقاسيم والأقاليم، وغيرهم من المحققين، قال القلقشندي: "اعلم أن مساكن العرب في ابتداء الأمر، كانت بجزيرة العرب"[1]، وهو قول المعاصرين من الباحثين في هذا الحقل، قال المقريزي: "و لا خلاف بيننا في أن هذه القبائل العربية التي ملأت الأقطار العربية على اتساع رقعتها، قد انبعث كلها بطبيعة الحال من مهدها الأول وهو شبه الجزيرة العربية"[2]، وقال: "وليس من شك في أن المستودع الأول في شبه الجزيرة العربية الذي أمد شطري الوادي بالعناصر العربية منذ عصور الجاهلية، هو نفسه الذي أمد بلاد المغرب كلها في أفريقية، وبلاد الشام والعراق في آسيا.."[3].

قال شيخ الإسلام :".. وفي هذه الأرض كانت العرب حين البعث وقبله فلما جاء الإسلام وفتحت الأمصار سكنوا سائر البلاد من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب وإلى سواحل الشام وأرمينية وهذه كانت مساكن فارس والروم والبربر وغيرهم ثم انقسمت هذه البلاد قسمين منها ما غلب على أهله لسان العرب حتى لا تعرف عامتهم غيره ...

[1] نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ص15.
[2] البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ص74، للمقريزي.
[3] السابق ص 95.

ومنها ما العجمة كثيرة فيهم أو غالبة عليهم .. فهذه البقاع انقسمت إلى ما هو عربي ابتداء وما هو عربي انتقالا وإلى ما هو عجمي وكذلك الأنساب ثلاثة أقسام قوم من نسل العرب وهم باقون على العربية لسانا ودارا أو لسانا لا دارا أو دارا لا لسانا وقوم من نسل العرب بل من نسل بني هاشم ثم صارت العربية لسانهم ودارهم أو أحدهما وقوم مجهولو الأصل لا يدرون أمن نسل العرب هم أو من نسل العجم وهم أكثر الناس اليوم "[1]

والمقصود أن أصول العرب في مشارق الأرض ومغاربها ترجع إلى الجزيرة العربية في كثير من الأحيان، وهذا بدوره يجعل للجزيرة العربية في كثير من القلوب مكاناً وقد قيل:

يقول الشاعر أبو تمام:

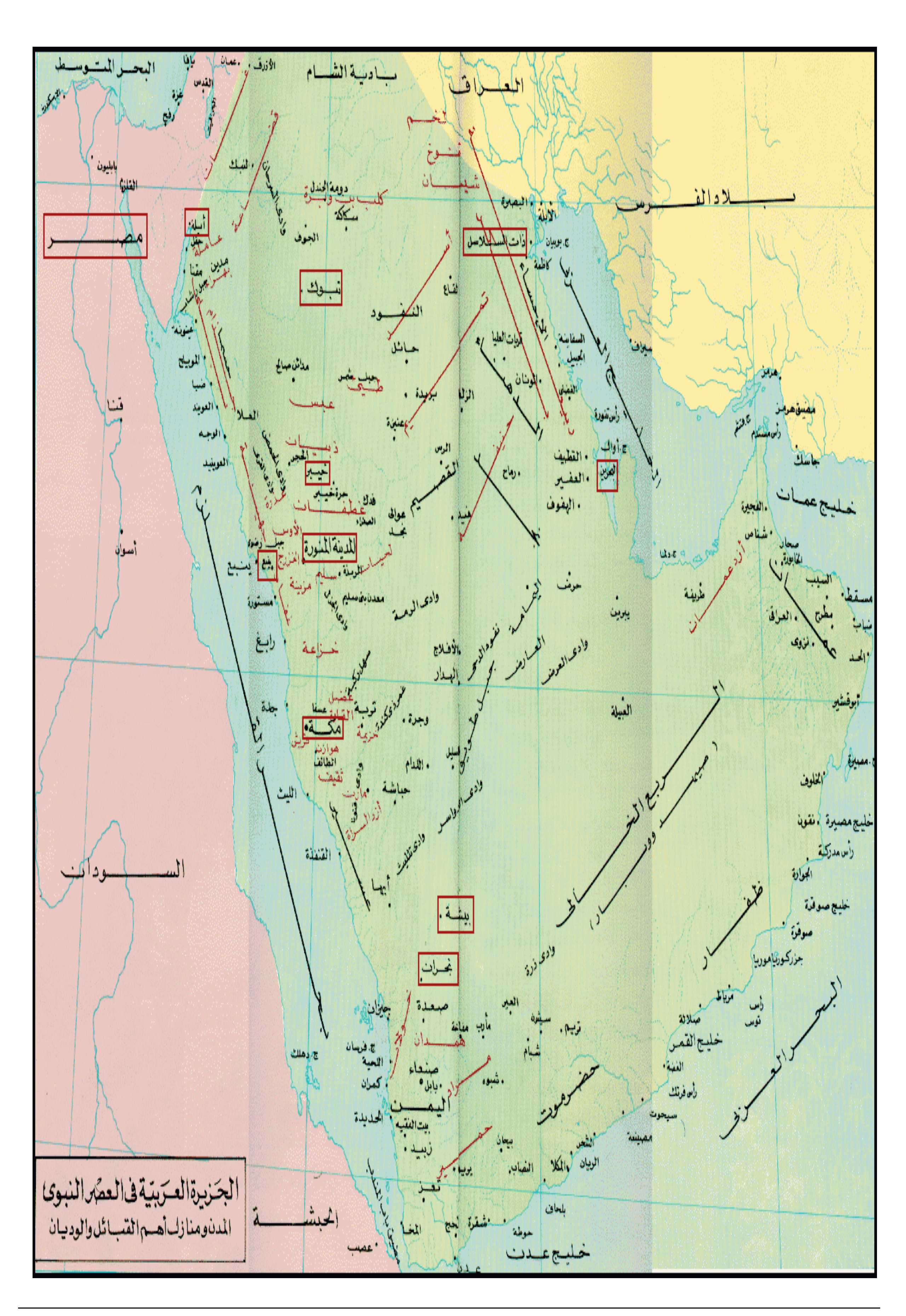
نقل فؤادك حيث شئت من الهوى .... ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل في الأرض يألفه الفتى ...... وحنينه أبـدا لأول منـزل

وقول الشاعر:

وقبيح بنا وإن قدم العهد   هوان   الآباء   و الأجداد

[1] اقتضاء الصراط المستقيم 1/166-167 باختصار.



قبائل العرب وتواجدها في الجزيرة العربية في العصر النبوي

الحسب و النسب عند العرب :

للنسب عند العرب شأن كبير، ولا يزال العربي يقيم له وزناً، ولا سيما عربي البادية. فعلى نسب المرء في البادية تقوم حقوق الإنسان، بل حياته في الغالب. فنسب الإنسان، هو الذي يحميه، وهو الذي يحافظ على حقوقه ويردع الظالم عنه ويأخذ حق المظلوم منه.

وقد يبدو ذلك للمدني الأعجمي أمراً غريباً شاذاً غير مألوف. ولكن هذا المدني نفسه يعمل بالنسب ويأخذ به، وإن كان في حدود ضيقة، فجنسيته هي نسبه، تحميه وتحفظ حقوقه. وليس نسب الأعرابي غير هذه الجنسية، يحتمي به، لأنه يصونه ويحفظ حقوقه و يدافع عنه. وهو مضطر إلى حفظه، وإلى عدّ آبائه وأجداده وذكر عشيرته وقبيلته، لأنه بذلك يسلم، ويحافظ على حياته. فإن أراد شخص الاعتداء عليه، عرف أن وراءه قوماً، يدافعون عنه ويأخذون حقه من المعتدى عليه. وهو لذلك مضطر إلى حفظ نسبه والمحافظة عليه.

وأما كون الحضر أقل عناية بأنسابهم من أهل الوبر، فلأن الحاجة إلى النسب عندهم أقل من حاجة أهل الوبر إليها. فالأمن مستقر، ولدى الحضر في الغالب حكومات تأخذ في المعتدى عليهم من المعتدين. ثم إن مجال الاختلاط والامتزاج عندهم أكثر وأوسع من أهل البوادي و سكان الأرياف، وكلما كانت الحواضر قريبة من السواحل و من بلاد الأعاجم، كان الاختلاط أوسع وأكثر، ولهذا ضعفت فيها وشائج الدم والنسب، وكثر

فيها التزاوج والتصاهر بين العرب والعجم، فصعب على الناس فيها المحافظة على أنسابهم، وقلت الفائدة من النسب عندهم. ولهذا لم يعتنوا به عناية الأعراب بالأنساب.

فالانتماء إلى عشيرة أو في قبيلة أو حلف، هو حماية للمرء، وجنسية في عرف هذا اليوم. ولهذا صار إخلاص الأعرابي لقبيلته أمراً لازماً له محتماً عيله، وعليه أن يدافع عن قبيلته دفاع الحضري عن وطنه. فالقبيلة هي قومية الأعرابي، وحياته منوطة بحياة تلك القبيلة. ولهذا كانت قومية أهل الوبر قومية ضيقة، لا تتعدى حدودها حدود القبيلة وحدود مصالحها وما يتفق أهل الحل و العقد فيها عليه. ومن هنا صارت القبائل كُتلاً سياسية، كل كتلة وحدة مستقلة، لا تربط بينها إلاّ روابط المصلحة والفائدة والقوة والضعف والنسب.

والعادة انتساب كل قبيلة إلى جدّ تنتمي إليه، وتدعي أنها من صلبه، وأن دماءه تجري في عروق القبيلة، وتتباهى به و تفاخر، فهو بطلها ورمزها، وعلامتها الفارقة التي تميزها عن القبائل الأخرى. وليس ذلك بدعاً في العرب، بل إنّا لنجد الأمم والشعوب الأخرى تنتمي إلى أجداد وآباء. ف "هيلين"**Hellen** "، هو جدّ أهل "دورس"**Dorus** "، ومنه أخذ "الهيليون" اسمهم هذا. وكان للرومان وللفرس وللهنود وللأوروبيين أجداد انتموا إليهم واحتموا بهم وتعصبوا لهم ونسبوا أنفسهم إليهم على نحو ما نجده عند العرب والإسرائيليين وبقية الساميين.

وفي التوراة ولا سيما "أسفار التكوين" منه، أبرز أمثلة على النسب، نجد فيها أنساب الأنبياء والشعوب، وأنساب بني إسرائيل. يسبق النسب في العادة جملة: "وهذه مواليد" "وإليه تولدت"، ثم يرد بعدها النسب. أي أسماء من يراد ذكر نسبهم. قد يذكر نسب الأب والزوجة والولد، وقد لا تذكر الزوجة، بل يكتفي بالأب وبأولاده. وقد لا يذكر الولد. والذي يقرأ هذه الأسماء يقرأها وكأنها أسماء أشخاص حقاً. ولكننا إذا قرأناها قراءة نقد، نرى أن بعضها أسماء مواضع ومواقع، أو أسماء قبائل، وعشائر أو أسماء طواطم، أي أسماء حيواناتّ سمت بها القبائل، مثل "ذئب" و "كلب" و "أسد" و "ضبة" وأمثال ذلك، وكلها كناية عن قبائل وشعوب عاشت قبل الشروع في تدوين هذه الأنساب أو في أيام التدوين.

ويظهر من كيفية عرض هذه الأنساب وجمعها وتبويبها أن في العبرانيين جماعة من النسابين اختصت بجمع الأنساب وحفظها، ومنهم من كان يعتني بجمع أنساب الغرباء عن بني إسرائيل، وربما كان كتبة الأسفار من هؤلاء. فلما شرع كتبة أسفار التكوين بقصة الخلق وبكيفية توزع شعوب العالم وظهور الإنسان على سطح الأرض، كان لابد من ذكر الشعوب وأنسابها على أسلوب كتابة التاريخ في ذلك العهد، فاستعين بما نجمع عند نسابي العبرانيين من علم بالنسب، وأدرج في هذه الأسفار.

وقد وردت في التوراة في أسفار التكوين وفي "أخبار الأيام الأولى" أسماء قبائل عربية، رجعتها إلى مجموعات، مثل مجموعة "يقطن" "يقطان"، ومجموعة الإشماعليين، أي الإسماعيلين،

نسل إسماعيل، غير أنها لم تشر كعادتها بالنسبة إلى كل أنساب البشر إلى المورد الذي أخذت منه تلك الأنساب. لذلك لا ندري إذا كانت التوراة قد اقتبست ما ذكرته عن أنساب الأمم من الأمم التي تحدثت عن نسبها، بأن أوردت تلك الأنساب على نحو ما كان شائعاً متعارفا عند الأمم المذكورة بالنسبة لنسبها، أو أنها روتها على حسب ما كان متعارفاً عند قدماء العبرانيين في أجداد البشر وفي أنسابهم، فدوّنتها على هذا النحو الشائع بين العبرانيين اذ ذاك.

أما النصوص الجاهلية، فإنها لم تتحدث، و يا للأسف، عن مجموعات قبائل على النحو المتعارف عليه عند علماء النسب. ولكنها جاءت بأسماء قبائل عديدة كثيرة، لم يعرف من أمرها أهل الأخبار والنسب شيئاً. فنحن نقف على أسمائها لأول مرة بفضل تلك الكتابات.

وقد أفادتنا الكتابات الجاهلية فائدة كبيرة من ناحية دراسة أسماء القبائل الواردة في كتب النسب والموارد الإسلامية الأخرى، إذ مكنتنا من الوقوف على الصلات بينها، وعلى معرفة ما سمي منها بالأب أو الابن أم الأم، كما عرفتنا على مواطن عديدة من مواطن الخطأ التي وقع فيها النسابون وأصحاب الأخبار، وعلى كثير من الوضع الذي، وضع في النسب أو في القصص المروي عن القبائل جهلاً أو عمداً أو ظهوراً بمظهر العلم والإحاطة بأنساب الرب وأخبارهم، الجاهلين منهم والإسلاميين.

ولم أجد في الشعر الجاهلي هذه القحطانية والعدنانية التي يراها أهل النسب والأخبار، وأقصى ما وجدته فيه قصيدة للأخنس بن شهاب بن شريق التغلبي حوت أسماء قبائل وأسماء مواطنها ومواضعها، هي: "معد" و "لكيز" و "بكر" و "تميم" و "كلب" و "غسان" و "بهراء" و "إياد" و "لخم". وهي قبائل بعضها عدنانية وبعضها قحطانية في اصطلاح أهل النسب، إلا أنني لم أجد فيها أسماء آباء هذه القبائل ولا أجدادها، ولم أستطع أن أفهم منها أن هذه القبيلة، هي قبيلة عدنانية، وأن تلك قبيلة قحطانية، فقد جاءت الأسماء متداخلة وكل ما وجدته فيها مما يخص النسب، هذا البيت:

فوارسها من تغلب ابنة وائل   حماة كماة ليس فيها أشائب

ولم يرتفع الأخنس بنسب تغلب إلى ما وراء وائل من آباء وأجداد.

والحق أن من يقرا هذه القصيدة دون أن يقرأ اسم صاحبها، يرى أنها من قصائد الشعراء المتكلفين الذين ظهروا في أيام الدولة العباسية، ولن يخطر بباله أبداً أنها من نظم شاعر جاهلي. وأنا أريد أن أتجاسر فأقول: إني أشك في صحة نظم ذلك الشاعر هذه القصيدة، وأسلوب نظمها يأبى أن يرجعها إلى ذلك العهد.

وقد خصص "ابن النديم" في كتابه "الفهرست"، فصلاً ب "أخبار الأخباريين والنسابين وأصحاب الأحداث"، ذكر فيه أسماء بعض من عرف واشتهر بحفظه للأنساب، ولا سيما من ألف فيهم تأليفاً في النسب. وقد طبعت بعض مؤلفات المذكورين، وهي متداولة بين

الناس. والذين ذكرهم "ابن النديم" هم من اشتهر وعرف وذاع خبره في العراق وفي البيئة التي اتصل بها "ابن النديم"، وهم من أهل الحواضر في الغالب، إلا أن بين أهل البوادي والأماكن القصية النائية المنعزلة جماعة كانت قد تخصصت بالنسب، انحصرت شهرتها في البيئة التي عاشت فيها. ولهذا لم يصل خبرهم إليه والينا، وكثير منهم لم يؤلف في النسب تأليفاً، وإنما حفظه حفظاً، شأنهم في ذلك شأن النَسّابين الجاهليين، أو الذين أدركوا الإسلام.

ونجد في كتب الأدب والتواريخ قصصاً عن بعض النسابين في الجاهلية وفي الإسلام، يثير الدهشة من قدرة وشدة الحافظة عند أولئك النسابين في حفظ الأنساب. وقد عرف أحدهم ب "النَسّابة"، فقيل: "فلان النَسّابة" أو "النسابة". وقد كان لهم شأن خطير بين قومهم، لأنهم المرجع في الأحساب والأنساب، واليهم المفزع عند حصول اختلاف في الأمور المتعلقة بها. ويذكر أن الخليفة "عمر" أمر بتسجيل الأنساب وتبويبها وتثبيتها في ديوان، وذلك عند فرضه العطاء، " فبدأ بالترتيب في أصل النسب، ثم ما تفرع عنه، فقدم عدنان على قحطان لأن النبوة فيهم وعدنان تجمع ربيعة ومضر، فقدم مضر على ربيعة لأن النبوّة فيهم، ومضر تجمع قريشاً وغير قريش، فقدم قريشاً لأن النبوة فيهم، وقريش تجمع بني هاشم وغيرهم، فقدم بني هاشم لأن النبوة فيهم، فيكون بنو هاشم قطب الترتيب، ثم بمن يليهم من أقرب الأنساب اليهم حتى استوعب قريشاً، ثم بمن يليهم في النسب حتى

استوعب جميع عدنان. وقد كان هذا التسجيل سنة خمس عشرة للهجرة، في رواية، أو سنة عشرين في رواية أخرى.

وذكر أن الخليفة قال: "أيما حي من العرب كانوا في حي من العرب أسلموا معهم فهم معهم، إلا أن يعترضوا، فعليهم البيّنة، كالذي فعله مع "بجيلة" رهط جرير بن عبد الله بن جابر، وكانوا قد تفرقوا، واغتربوا بسبب حروب وقعت بينهم والتحقوا بقبائل أخرى. وروي أن عوف بن لؤي بن غالب ألحق نسبه ب "غطفان"، والتحق نسب بنيه "بني مُرّة" بَغَطفان، ويقال إن الخليفة قال: لو كنت مستخلفا حياً من العرب، لاستخلفت يني مُرَّة، لما كنا نعرف فيهم من الشرف البين، مع ما كنا نعرف من موقع عوف بن لؤي بتلك البلاد. ثم قال بعض أشرافهم: إن شئتم أن ترجعوا لنسبكم من قريش، فافعلوا. ولكنهم كرهوا أن يتركوا نسبهم في قومهم، ولهم فيهم من الشرف والفضل ما ليس لغيرهم."

وقد ضاعت أصول الجرائد التي دوّنت عليها الأنساب في ذلك الديوان، ولم يبق منها شيء. ويظهر أن أهل الأخبار لم ينقلوا صورها، وإنما أخذوا الأسس التي قام عليها التسجيل على نحو ما ذكرت، وبالجملة فإن في إشارتهم إلى تلك الأسس والقواعد التي سار عليها الخليفة في اتخاذ القربى بالرسول والوضع القائم للقبائل، فائدة كبيرة لدراسة أسس تثبيت الأنساب عند العرب في صدر الإسلام.

ويذكر أن الذي قام بوضع مخطط الأنساب وبتسجيل القبائل والعشائر وفق الخطة التي أشرت إليها، هو "عقيل بن أبي طالب"، وهو من الثقات في معرفة الأنساب، ومعرفة بن نوفل، وجبير بن مطعم، وأن الذي أشار عليه بتدوين النسب في الدواوين هو "الوليد بن هشام بن المغيرة" لما رآه من عمل الروم في تسجيل العطاء في بلاد الشام.

ولم يقتصر التسجيل المذكور على تسجيل نسب القبائل وحدها، بل شمل ذلك نسب أهل القرى أيضاً، كنسب أهل مكة والمدينة والطائف وغيرها. وذلك لأن سكانها وإن كانوا من أصحاب المدر، وقد أقاموا واستقروا في بيوت ثابتة، إلا أنهم كانوا كالأعراب من حيث الانتساب إلى الآباء والأجداد. وقد رأينا أن عمر كان قد بدأ بقوم الرسول، وقومه حضر، من أهل مكة، إلا أنهم كانوا لا يختلفون عن أهل الوبر في التعلق بالأنساب وفي حفظها، لأن حياتهم الاجتماعية وان كانت في قرية، إلا أن غريزة المحافظة على النفس والدفاع عن الحقوق حملتهم مثل الأعراب على التمسك بالعصبية، بعصبية النسب، ليتمكنوا من المحافظة على الأمن والسلامة والمال، لعدم وجود حكومة قوية تقوم اذ ذاك بتأمين هذه الواجبات. ثم إن هذه الأماكن محاطة بالأعراب، وبين أهل مكة من كان شبه حضري، وبيئة مثل هذه لا بد لها من الاحتماء بعصية النسب، وبالتزاوج مع الأعراب، لتكوين رابطة دموية، تؤدي إلى عصبية تضطر الطرفين إلى الدفاع عن مصالحهما المشتركة وتكوين كتلة واحدة تستجيب للنخوة ولنداء الاستغاثة في ساعة الحاجة والضرورة. ولهذا

كان للتزاوج عند العرب أهمية كبيرة في السياسة. ومن هنا نظر سادات القوم والملوك إلى التزوج من بنات سادات القبائل الكبيرة نظرة سياسية في الدرجة الأولى وذلك لشد عضدهم ولتثبيت ملكهم ولضبط القبائل، وبضبطها يستتب الأمن وينتصرون على الأعداء. وقد كان لزواج معاوية في الإسلام من "كلب" أثر كبير في السياسة الأموية وفي تثبيت ملكه وملك ابنه يزيد وملك مروان الذي انتصر بهم في معركة "مرج راهط" على القيسيين.

وعلى الرغم من التسجيل المذكور الذي كان للعطاء، أي لأغراض حكومية رسمية، فإن أنساب القبائل لم تثبت ولم تستقر إلا بعد ذلك بأمد. وآية ذلك ما نجده من خروج قبائل في العصر الأموي من نسب قديم، ودخولها في نسب آخر جديد. وقد كان شروع النسابين في تسجيل علمهم وتدوينه، مما ساعد كثيراً ولا شك في تثبيت هذه الأنساب وإقرارها، ولا سيما أنساب القبائل المشهورة المعروفة، وقد وصلت بعض كتب الأنساب، وطبع قسم منها.

وقد وضع بعض المؤلفين، مثل الواقدي أبي عبد الله محمد بن عمر المتوفى سنة "207ه"، مؤلفاً في "وضع عمر الدواوين، وتصنيف القبائل ومراتبها وأنسابها"، إلا أنها ضاعت، فحرمنا الاستفادة منها، ولو بقيت مثل هذه المؤلفات إذن لكان لنا علم قيّم ورأي في كيفية تصنيف القبائل في تلك الأيام.

وقد كان بعض النسابين قد تخصص بنسب جماعة من العرب، جماعة قومه ومن يرتبط بهم في الغالب. مثل "الزبير بن بكّار" صاحب "كتاب نسب قريش وأخبارها"، ومثل "عقيل بن أبي طالب"، وكان قد تخصص بنسب قريش، ومثل "أبي الكاس الكندي"، وكان أعلم الناس بنسب كندة، ومثل "النجار بن أوس العَدْواني"، وكان من أحفظ الناس لنسب "معد ابن عدنان"، ومثل "عديّ بن رثاث الإيادي"، وكان عالماً بإياد، ومثل "خراش بن إسماعيل العِجْلي"، وكان عالماً بنسب ربيعة. وعن هؤلاء وأمثالهم أخذ أهل الأنساب علمهم بالأنساب، ووضعوا كتباً في نسب القبائل أو في أنساب العرب، أو في أنساب جماعة منهم.

ولتسجيل "عُمَر" للأنساب شأن كبير بالنسبة إلى الباحثين في تطور النسب عند العرب، لأنه ثبت بذلك الأسس ووضع القواعد للنسابين في الإسلام وقلل من الاضطراب الذي كان يقع في النسب، بسبب الاختلاط، وعليه سار المسلمون في تقسيم العرب إلى أصلين. ولا بد أن يكون لهذا التقسيم أصل قديم، يرجع إلى ما قبل عمر أقره الخليفة، وجعله أساساً له في التقسيم الذي بقي مرعياً متعارفاً عليه بين النسابين إلى اليوم. ويمكن أن نقارن هذا العمل، أي تسجيل النسب وتثبيته في سجلات، بالعمل الذي قام به "عزرا" في تثبيت أنساب اليهود وتدوينها، وفي تدوين أنساب الغرباء، لتستقر بذلك الأنساب فسار من جاء بعده من النسابين في تعيين النسب على أساس ذلك التدوين.

وفي القرآن الكريم آيات تشير إلى عناية القوم بأحسابهم وأنسابهم، ولكنه لم يتعرض لبيان وجهة نظرهم بالنسبة إليها، ولا يشعر في موضع ما منه بوجود تلك الفكرة التي ألحّ على وجودها أهل الأخبار، وهي انقسام العرب إلى ثلاث طبقات أو طبقتين، ووجود نسبين أو جملة أنساب للعرب، ولم يرد فيه اسم "عدنان" ولا "قحطان"، ولا أي من هذه الأشياء التي يتمسك بها أهل الرواية والأخبار، ويقصونها لنا على أنها من الحقائق الثابتة في أنساب العرب، وعلى أن العرب كانوا حقاً من جدّين هما: عدنان وقحطان.

بل كان ما ورد في القرآن يشعر أن العرب كانوا ينظرون إلى أنفسهم أنهم من جد أعلى واحد، هو: "إبراهيم" وأن "إبراهيم" أبو العرب: "وجاهدوا في اللّٰه حق جهاده. هو اجتباكم. وما جعل عليكم في الدين من حرج، ملة أبيكم إبراهيم. هو سماكم المسلمين ...". فلم يفرق بين عرب "قحطانيين وعرب عدنانيين. ورُوي: إن الرسول قال: "كل العرب من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام."

بل حتى الشعر الجاهلي، لا نجد فيه إشارة واحدة تفيد اعتقاد الجاهليين بوجود أصلين أو ثلاثة أصول أو أكثر لهم. وكل ما ورد فيه هو فخر بقحطان وفخر بعدنان أو معدّ أو غير ذلك من الأسماء التي تعد من أسماء الأجداد التي ينتهي إليها "الشعب" أو "الجذم". وأما التفصيلات الأخرى والأسماء الواردة في ذكر النسب أو الأخبار والتواريخ، فهي من روايات الإسلاميين. ثم إن من الشعر الجاهلي ما لا يصح أن يكون جاهلياً، ومنه ما قيل

قبل الإسلام، ولا يصح كل الشعر الجاهلي أن يكون شاهداً على آراء أهل الجاهلية البعيدين عن الإسلام.

كذلك لا نجد في شعر الجاهلية سلسلة نسب لحطان أو عدنان. ولا نجد في الأخبار ما يفيد وقوف أهل الجاهلية عليها وهي سلسلة أخذت أسماؤها من التوراة، وبعضها أسماء محرفة موضوعة على شاكلة الأسماء التوراتية. أما في الحديث النبوي، فقد ورد أن الرسول انتسب إلى "أسد"، وهو والد "عدنان"، ثم قال: "كذب النسابون". و في كل ذلك دلالة على أن أسماء آباء لحطان وعدنان، إنما دونت وتثبتت في الإسلام. أما قبل الإسلام، فلعل بعضهم وفي أيام الرسول، كان قد تلقن من اليهود نسب لحطان، وأن بعض اليهود لقن العرب نسباً لعدنان، فلما لاكت الألسنة تلك الأنساب، وسمعها الرسول قال: "كذب النسابون."

أما أسماء أبناء لحطان وعدنان فما دون ذلك، فإنها أسماء عربية في الغالب، و ينقطع منها أثر التوراة وأثر الأسماء التوراتية، مما يدل على أن النسابين العرب كانوا على علم وبصيرة بتلك الأسماء، وأنها كانت معروفة عندهم. وهي أسماء لا ترد في التوراة ولا خبر لها عند أهل الكتاب.

وقد ذهب "دوزي" إلى وجود فروق أساسية بين القحطانيين و العدنانيين، حتى ذهب إلى وجود اختلاف بين نفسية كل جماعة من الجماعتين. وأنا لا أريد أن أنكر عليه وجود العداء

الذي كان قد استحكم بين القبائل التي تنتسب إلى معد أو إلى قحطان، ولا أريد أن أنكر عليه تهجم شعراء اليمن على قبائل معد، أو عدنان، ولا تهجم شعراء عدنان على قبائل اليمن المنتمية إلى قحطان، ولا أريد أن أنكر افتخار اليمانيين بانتسابهم إلى اليمن، ولا افتخار العدنانين بانتسابهم إلى عدنان أو مضر أو معد أو غير ذلك من أسماء الشعوب والأجذام، لا أريد أن أنكر شعر "امرىء القيس" في افتخاره بنسبه في اليمن، ولا أن أنكر شعر غيره من الشعراء اليمانيين أو الشعراء العدنانيين في الافتخار باليمن أو بمضر أو بمعد. ولكنني لا أريدّ أن أنكر في الوقت نفسه افتخار القبائل القحطانية بعضها على بعض، وافتخار القبائل العدنانية بعضها على بعض، وهجاء القبائل القحطانية بعضها لبعض، وهجاء القبائل العدنانية بعضها لبعضها هجاء لا يقل عن هجاء اليمن لمعد أو هجاء معد لليمن. فهل يصح أن يتخذ هذا الهجاء سبباً لوضع نظرية في اختلاف أجناس هذه القبائل؟ وهل يصح أن نجعل هذا الهجاء حجة على تباين أصل القحطانيين، وعلى تباين أصل العدنانيين ؟ إن جاز ذلك، وجب علينا إذن إعادة النظر في كل ما هو مكتوب عن أصول القبائل وفي كل ما هو مدوّن في كتب النسب والأخبار.

هذا "سلامة بن جندل السعدي"، وهو من مضر، يحل في شعره على معدّ، ويهجوها هجاءً مراً، وهذا "قيس بن الخطيم" لسان الأوس يحمل على الخزرج، ويردد ذكريات الأيام التي كانت بين الأوس والخزرج بمثل الشدة التي تجدها في شعر الهجاء الذي قاله العدنانيون في

القحطانيين، والقحطانيون في العدنانيين. إنه ذكر تلك الأيام لا لمجرد الفخر والتباهي، بل ليثير في نفوس الأوس الأحقاد القديمة، وليزيد في تلك النيران نيرانا. لقد ذكرهم "بيوم الربيع"، وذكرهم ب "يوم السرارة"، وذكرهم ب "يوم مضرس ومعبس"، و هو يوم دارت فيه الأيام دورتها على الأوس، فقتل منهم عدد كبير، وانهزم أكثرهم إلى بيوتهم ، حتى خرج الناس من طوائفهم إلى مكة يستعينون على الخزرج، وذكرهم بأيامهم الأخرى. كل ذلك بلهجة عنيفة شديدة، ليس فيها لين ولا رفق. إنه ينظر إلى الخزرج نظرة عداء وحقد، نظرة تشعر منها أن الأوس جنس وأن الخزرج من جنس بعيد آخر. لقد ذكر قريشاً بخير، وذكر أنها ستحمل عنهم حرب الخزرج، وذكر أنهم لو التحقوا بأبرهة اليماني أو بنعمان أو عمرو، لنالوا من هؤلاء كلَّ قدير، و لجعلوا لهم جاهاً أي جاه.

ذكر أبرهة حاكم اليمن، وذكر غسان ولخماً، وذكر أهم من ذلك كله قريشاً على أنها ستحمل الحرب وستقابل الخزرج عما قريب. وقريش من عدنان، والأوس والخزرج من قحطان، ولم نجد في شعره ما يذكر برابطة النسب بين الخزرج والأوس. ولم يرد في شعره اسم قحطان أو عدنان. والقصيدة التي ذكر فيها هذا اليوم هي من أقدم قصائد هذا الشاعر الذي اضطرت قبيلته "للظفر"، ومعها "عبد الأشهل" إلى مغادرة يثرب والتفتيش عن حليف يساعدها في العودة إلى ديارها، فذكر قيس قريشاً، وكأنه يذكر قبيلة قريبة من قبيلته، مع أنها من نسب آخر في رأي النسابين.

وفي كتب الأدب والدواوين شعر كثير يذسب إلى شعراء جاهليين وشعراء مخضرمين وشعراء إسلاميين، فيه هجاء عنيف من شاعر قحطاني لقبائل قحطانية، ومن شاعر عدناني لقبيلة عدنانية، وفيه مدح وفيه إغراق من شاعر قحطاني لقبائل عدنانية، وهجوم عنيف على القحطانيين، وهكذا. ولو أردنا شرح ذلك وسرد الأمثلة، لأخذ ذلك منا وقتاً طويلا يخرجنا عن صلب الموضوع، وينقلنا إلى أمور أخرى لا صلة لها بهذا البحث.

ثم إن علينا أن نحسب حساباً لأمر هذا الشعر المروي في المدح والفخر وفي الذم والهجاء، وهو عندي أوسع باب من أبواب الشعر محتمل النقد، وإثارة الشكوك حوله. وقد خبرنا من الكتب أن القبائل كانتّ تستأجر الشعراء لقول المدح أو الذم، وأنها كانت تعد الشاعر منحة من منح الله على القبيلة، لأنه لسانها الناطق والذائد عنها بشعره، يدافع عن قبيلته، ويهاجم أعداءها، ويتهمهم بكل ما يصل إليه فنه من الهجاء ورمي التهم، كائنين ما كانوا قحطانيين أو عدنانيين. وقد اقتضت طبيعة الخصومة التي زادت حدتها في الإسلام بين يمن ومضر وضع شيء كثير من هذا الشعر، شعر المنافرة والمفاخرة بين عدنان وقحطان، وهذا أمر وقع، مفروغ منه، لا شك في صحته وثبوته، اقتضته ظروف السياسة، فيجب الانتباه له حين التحدث عن نزاع قحطان وعدنان.

وترينا الأخبار أن ما نسميه بنزاع قحطاني وعدناني لم يكن شديداً في الجاهلية بين القبائل التي كانت تقيم في الأنحاء الشمالية من جزيرة العرب، أي بين تلك القبائل التي رجع

النسابون نسبها بحق أو بغير حق إلى عدنان أو قحطان، بمثل تلك الشدّة التي تظهر في النزاع الذي تحدثوا عنه بين القبائل التي كانت تعيش في اليمن أو في الحجاز. وهذا أمر ذو بال، يجب أن يحسب له كل حساب عند الحديث عن نزاع عدنان وقحطان.

وترينا الأخبار كذلك أن الخصومات التي وقعت بين القبائل العدنانية نفسها، أو بين القبائل القحطانية نفسها، لم تكن أقل عنفاً وضراوةً من ذلك النزاع الذي وقع بين من نسميهم بالقحطانيين ومن نسميهم بالعدنانيين. لقد اتخذ شكلا عنيفاً،شكلاً يجعلك تشعر أن تلك القبائل كانت تشعر أنها قبائل متباعدة لا يجمعها شمل، ولا يربط بينها نسب، ولا تجمعها جامعة دماء على النحو الذي يرويه ويذكره أهل الأنساب والأخبار.

والغريب أنك في كل ذلك النزاع المر العنيف، لا تسمع فيه انتساب كل العرب إلى عدنان أو قحطان، و إنما تسمع فيه فخراً بأسماء القبائل أو بأسماء الأحلاف الداخلة في عدنان أو في قحطان، تسمع فيه اسم "معد" أو اسم "يمن" أو "نزار" أو "مضر" أو غير ذلك، ولا تسمع فيه اسم الجدّين الأكبرين المذكورين. فماذا يعني هذا ؟ وعلام يدل ؟ واليمن عند أهل الأنساب والأخبار وفي العرف، كناية عن "قحطان"، و "قحطان" عندهم أيضاً و في العرف كناية عن "يمن" وعن الشعوب التي ترجع نسبها إلى "يمن" أما "معد" و "مضر" و "نزار"، فكناية عن "عدنان" أو عن أحلاف من أحلاف عدنان.

وأنت إذا ما أردت أن ترسيم حدوداً فاصلةً بين "قحطان" و "عدنان"، أي بين "يمن" و "معد"، فإنك تستطيع أن ترسمها بسهولة إذا ما اعتبرت "قحطان" كناية عن اليمن، وأن "عدنان" كناية عن "قريش" والقبائل التي ترجع نسبها إلى نسب قريش. وحدود أرض قريش وحدود أرض اليمن معروفة واضحة. أما إذا أردت إن ترسم حدوداً فاصلة، وأن تضع معالم واضحة بينة بين القبائل القحطانية والقبائل العدنانية، استناداً إلى روايات أهل الأنساب والأخبار وإلى الشجرات التي رسموها لأنساب العرب طرّاً، فإنك ستخفق حتماً، وسيخيب عملك من غير شك. ذلك لأن أهل الأنساب لم يسيروا في تقسيمهم العرب على وفق قواعد ثابتة وأسس واضحة مرسومة، مثل اختلاف في ملامح جسمانية، أو تمايز في أمور عقلية أو نفسية أو لغوية، أو اختلاف في مواقع جغرافية، بل ساروا وفقاً للعرف والشائع، فسجلوا الأنساب على وفق الشائع بين الناس عن النسب في ذلك العهد.

وأنت إذا أردت تطبيق ما عندك من علم في "الأثنولوجيا" وفي "الأنثروبولوجيا" وفي العلوم المشابهة الأخرى، على التقسيم الثنائي للعرب، فستجد نفسك حائراً تائهاً لا مجال لقواعد علمك في هذا المكان. فبين القبائل التي تنتمي إلى "قحطان" مثلاً تباين كبير في الملامح وفي العقلية وفي اللغة، ويجعل من غير الممكن تصور وجود وحدة دموية تجمع شمل هذه القبائل، وجدّ واحد انحدر من صلبه هؤلاء، وبين القبائل العدنانية اختلاف كذلك في الملامح وفي اللغة، يضطرك إلى القول بفساد نظرية النسابين في أصل هذه القبائل، ولا بد

عندئذ من اعتبار هذا النسب رمزاً أخذ من صراع قديم، أو من أحلاف قديمة، فصير جدّين لجماعتين. وكيف تمكن من إقناع الباحث الحديث في العلوم المذكورة بوجود وحدة في الملامح الجسمية وفي الصفات العقلية، ووحدة في اللسان بين القبائل القحطانية الجنوبية، الضاربة في اليمن وفي بقية العربية الجنوبية وبين القبائل القحطانية الشمالية، مثل غسان ولخم وكلب وكندة وغيرها، على حين يرى بين الجماعتين فروقاً واضحة بيّنة في كل شيء، حتى إنه يستطيع أن يشير إلى القحطاني الجنوبي حالاً عند رؤيته له، على حين لا يستطيع أن يميز القحطاني الشمالي من العدناني، ولا أن يعرفه إلا بالاستفسار منه. الصحيح أننا إذا أخذنا بالملامح وبالأمور الأخرى المذكورة، خلصنا إلى نتيجة تقول لنا إن الفروق بين القحطانيين والعدنانيين هي أقل جداً من الفروق التي نراها بين القحطانيين الشماليين والقحطانيين الجنوبيين. وهي نتيجة ليست في مصلحة أهل الأنساب بالطبع، تبين لنا أن قضية قحطان وعدنان قضية اعتبارية لا غير.

بل خذ القحطانيين الجنوبيين، وهم لبّ القحطانية ومادتها، ترَ أن القحطاني الساكن على السواحل الجنوبية يختلف في سحنته عن القحطاني الساكن في المرتفعات والهضاب، والجبال. وأن الساكن على السواحل المقابلة للسواحل الأفريقية يختلف في ملامحه الجسمية عن الساكن على السواحل المقابلة للهند، وأن سكان حضرموت أو عمان أو مسقط يختلفون في الملامح والسحن عن إخوانهم القحطانيين الساكنين في اليمن وفي نجران وفي

الأقسام الجنوبية من المملكة العربية السعودية. فهل يكون هذا الاختلاف دليلاً على قحطانية بالمعنى الذي يزعمه أهل الأنساب ؟

ولقد ذهب بعض الباحثين في علم الأجناس البشرية "الأنثروبولوجيا "**Anthropology**"" إلى أن العرب الجنوبيين هم من أصل حامي، وأن وطنهم الأصلي هو أفريقية. وقد ذهب بعض آخر إلى وجود شبه كبير في الملامح وفي الخصائص البشرية بين العرب الجنوبيين والقبائل الإفريقية الساكنة على الساحل الإفريقي من البحر الأحمر والصومال، إلا إنه نسب ذلك إلى أن تلك القبائل كانت عربية في الأصل، هاجرت من جزيرة العرب عن طريق باب المندب إلى أفريقية، فسكنت هناك. ومن ثم وقع هذا التشابه. بين تلك القبائل والعرب الجنوبيين.

ورأى آخرون أن العربية الجنوبية هي مزيج من الأجناس البشرية واضحة المعالم، وذلك منذ أقدم أيامها، فنرى فيها قبائل تشبه جماعة "الفيديد "**Weddid**" الهندية، وهي من السلالات الهندية القديمة، يسكن بعضها في أرض "سيهان" و"معارة" من حضرموت، ونرى فيها عناصر مما يطلق عليها اسم "الجنس الشرقي "، وهو الجنس الذي يكثر وجوده بين العرب الشماليين، وعناصر أخرى تمثل إنسان حوض البحر المتوسط أو الأجناس الأوروبية، حيث وجد بعض السياح بين بعض قبائل اليمن جماعة من الناس لها عيونُ

زرق وشعر أشقر وبشرة بيضاء أو تميل إلى البياض وملامح أوروبية بينة، وتتراوح نسبة هؤلاء بين 8 إلى 12 بالمئة.

ووجد الباحثون بين القبائل العربية الجنوبية ،جماعات لها ملامح آشورية وجماعات ذات ملامح تشبه ملامح سكان آسية الصغرى، وجماعات ذات ملامح أفريقية. وقد وجد الدكتور " سليمان أحمد حزين" أن بين أهل شمال اليمن وبين أهل جنوب اليمن إلى المحيط اختلافات بارزة في الملامح وفي المظاهر الجسمية يخرجنا البحث عنها هنا من حدود التأريخ العام. ووجد غيره مثل ذلك. كما وجد هذا الاختلاط بارزاً في بقايا الهياكل البشرية القديمة التي عثر عليها في العاديات.

وما هذه المظاهر والملامح التي رأيناها من الجماجم وبقية الهياكل البشرية ومن أشكال التماثيل والصور، ومن دراسات الباحثين "الأنثروبولوجيين" للقبائل الحاضرة، إلا حكاية واضحة صريحة عن عملية امتزاج أجناس بشرية متعددة في العربية الجنوبية، بسبب الهجرات والحروب والاتصال البحري والتجارة وعوامل أخرى، ونجد مثل ذلك بالطبع بين من نسميهم بالعرب الشماليين. وسوف نرى أن الدول القديمة كانت تنقل البشر نقلا من مناطق إلى مناطق فتزرعهم فيها، وأن أكثر أفراد الجيوش التي كانت ترسل لمحاربة القبائل أو للتوسع في الجزيرة كانت تبقى وتستقر في المواضع التي ترسل إليها، فتتطبع بطباع من نزلت بينهم، وتكون في النهاية منهم، أضف إلى ذلك الرقيق.

وقد ذكر أن جماعة من "بني الحارث بن كعب" وفدت على الرسول، فنظر إليهم، فقال: " من هؤلاء الذين كأنهم من الهند؟". وقد كان "قيس بن عمرو" الشاعر المعروف ب "النجاشي" من هؤلاء. وسواء أكان ما نسب إلى الرسول من قوله المذكور صحيحاً أم موضوعاً، فإن الأخبار تذكر أن بشرة "بني الحارث بن كعب"، كانت تميل إلى السمرة الشديدة، بل إلى السواد الذي يشبه سواد بشرة الإفريقيين، أفلا يجوز أن يكون أصلهم من إفريقية؟ وقد عرفت جماعة كبيرة من أهل مكة بالأحابيش، لأن أصلهم من رقيق الحبشة والسواحل الإفريقية المقابلة لجزيرة العرب ؟ فدعوى وجود جنس "أنتروبولوجي" واحد أو جنسين منفصلين، لكل منهما خصائص جسمية وملامح "فسيولوجية" معينة للعرب، وبالمعنى العلمي المفهوم اليوم عند علماء الأجناس، هي دعوى غير مقبولة، لأن البحوث العلمية والمختبرية لا تؤيدها ولا تثبتها، ولأن البحوث التأريخية الحديثة تعارضها أيضاً، وكل ما نقوله هو أن ما نسميه اليوم بالجنس هو جنسية ثقافية فكرية، لا جنسية دموية تقوم على وحدة الملامح والمظهر والدم.

فما يذكره أهل الأنساب عن النسبين، وما يتصوره بعض الناس من صفاء الجنس العربي صفاءً تاماً ونقائه من كل دم غريب، دعوى لا يمكن الاطمئنان إليها في هذا اليوم. لن يضير العرب قول مثل هذا، فصفاء الأجناس البشرية صفاءً تاماً، من القضايا التي عجز

حتى القائلون بنظرية العنصريات مثل النازيين عن إثباتها في هذا اليوم، وسيظهر ضعفها في المستقبل ظهوراً أوضح مما هو عليه الآن.

لقد كان "نولدكه" أول من شك من المستشرقين في هذا النسب العام الذي وضعه أصحاب الأنساب للعرب، وكان أول من نبه على أثر اليمانيين في وضعه وفي محاولتهم رجعه إلى عهود قديمة قبل الإسلام، وذهب "هاليفي" إلى أبعد من ذلك، فرأى أن كل ما قيل في هجرة القبائل اليمانية إلى الشمال هو أسطورة، وأن ما يزعم من انتساب تلك القبائل إلى اليمن هو حديث خرافة لا يركن إليه.

ونحا مستشرقون آخرون هذا المنحى، فرأوا أن للنسابين يداً في ترتيب هذه الشجرة العظيمة للأنساب، أو الشجرتين بتعبير أصح: شجرة نسب أبناء قحطان، وشجرة نسب أبناء عدنان. ولذلك فهم لا يطمئنون إليها، ولا يصدقون بكثير من هذه الأنساب المروية وبالأخبار والروايات الواردة في هجرة القبائل القحطانية نحو الشمال.

إذن، فقحطان ليس بجدّ لكل القبائل القحطانية المعروفة، وعدنان لم يكن جداً لجميع القبائل العدنانية، وإنما ما كنايتان عن مجموعة قبائل، تدعى عند العرب "بالحلف"، وقد أخذ أهل النسب قحطانهم من التوراة، وهو هناك كناية عن مجموعة قبائل مواطنها في العربية الجنوبية. أما "عدنان" فلم يرد اسمه في التوراة، ولا نعرف من أمره شيئاً في الزمن الحاضر، والظاهر أنه كناية عن حلف، ويظهر أنه ظهر للوجود قبيل الإسلام. وعدم وقوفنا على

أخباره، لا يسوغ لنا نكران وجوده، فلعل الأيام تكشف لنا عن كتابات نرى فيها اسمه، كما حدث بالنسبة إلى أسماء أخرى شك في أصلها بعض المستشرقين، ثم تبين أنها كانت معروفة، بدليل ورودها في بعض كتابات الجاهليين.

ولا أعتقد أن التوراة ابتدعت فكرة "يقطان" ونسل يقطان، إذ لا يعقل تصور ذلك. والذي أراه أنها حكت نسباً كان يجمع شمل القبائل العربية المذكورة عند العرب، وصل خبره إلى العبرانيين فسجله كتبة التوراة في الأسفار، مع أنساب الشعوب. كما إنها أخذت من العرب أيضاً نسب "الإشماعيليين" على نحو ما كان م معروفاً يومئذ، وكذلك نسب أبناء "قطورة". فتكون التوراة قد ذكرت أنساب ثلاث مجموعات أو أحلاف عربية كبيرة، كانت قائمة في ذلك الزمن.

و قد يكون من الخير الإتيان بأمثلة من أيام الإسلام، تساعدنا في شرح موضوع النسب عند الجاهليين وتفسيره. فإن الزمن وإن تغير وتبدل في الإسلام وتباعد عن الجاهلية، إلا أن الأفكار القبلية بقيت هي هي عند تلك القبائل بالنسبة إلى النسب وتكوين الأحلاف. فقبيل ظهور الإسلام كان بين "يثرب" و "مكة" نزاع شديد. ولما هاجر الرسول إلى "يثرب" عرف أتباعه الذين تبعوه بالمهاجرين.

وقد دامت الهجرة إلى عام الفتح: " فتح مكة"، وأما أهل المدينة الذين آووا الرسول ونصروه، فقد عرفوا بالأنصار لانتصارهم للرسول ولتقديم مساعداتهم له ولله سلمين.

وللقضاء على الخصومة، آخى الرسول بين الأنصار والمهاجرين،غير أن العداء عاد فتجدد بين الأنصار والمهاجرين، بعد وفاة الرسول، ويظهر أثره في شعر حسان بن ثابت والنعمان بن بشير والطّرمّاح بن حكيم، وهم شعراء يثرب وألسنتها، وفي الأشعار الأخرى التي جمعا في دواوين الأنصار.

وقد صيّر النزاع المذكور لفظة "الأنصار" علماً خاصاً على أهل المدينة، حتى كادت تكون نسباً، واصطبغت الدعوة بصبغة يمانية، فنجد في شعر الأنصار فخراً باليمن، واعتزازاً بأصلهم اليماني، ومجاهرة بأنهم يمانيون صرحاء وبأنهم من أقرباء الغساسنة ومن ذوي رحمهم، كما أنهم استعملوا لفظة الأنصار مقابل قريش ومعد ومضر ونزار، وأطلقوا على لسانهم حسان بن ثابت شاعر الأنصار، وشاعر اليمن، وشاعر أهل المقرى.

ونجد في أيام معاوية وفي أيام ابنه يزيد قصصا عن هذا النزاع اليثربي المكي، النزاع الذي سمي نزاع الأنصار مع المهاجرين، أو نزاع الأنصار مع قريش، ويلاحظ أن هذا القصص لم يستعمل لفظة "مهاجرين" في مقابل "الأنصار" إلا نادراً، إنما استعمل الألفاظ المذكورة. وقد عرفت وفودهم فيه ب "وفود الأنصار" أو "الأنصار"، فصارت تلك اللفظة وكأنها نسبٌ أو علم من أعلام القبائل، حتى تضايق من ذلك رجال قريش. قيل بينما كان "عمرو بن العاص" عند "معاوية" يوماً، إذ دخل عليه حاجبه يقول: "الأنصار بالباب"، فتضايق من ذلك عمرو، وقال: "ما هذا اللقب الذي قد جعلوه نسب؟ أرددهم إلى نسبهم". فقال

له معاوية: إن علينا في ذلك شناعةً، قال: وما في ذلك ؟ إنما هي كلمة مكان كلمة، ولا مرد لها.

فقال معاوية لحاجبه: أخرج، فنادِ: مَنْ كان بالباب من ولد عمرو بن عامر، فليدخل. فخرج، فنادى بذلك، فدخل من كان هناك منهم سوى الأنصار، فقال له: أخرج، فناد: من هنا من الأوس والخزرج، فليدخل، فخرج فنادى ذلك، فوثب النعمانَ بن بشير، فأنشأ يقول:

يا سعد، لا تعد الدعاء، فما لنا نسب نجيب به سوى الأنصار

نسب تخيره الإلهَ لقومنا أثقل به نسباً إلى الكفار

إن الذين ثووا ببدر منكم يوم القلِيب همُ وقود النار

وقام مغضباً، فبعث معاوية، فرده، وترضاه وقضى حوائجه وحوائج من كان معه من الأنصار. وكان النعمان بن بشير حامل لواء الأنصار قد غضب في مجلس من مجالسه مع معاوية، ولاحظ معاوية عليه الغضب فضاحكه طويلاً، ثم قال له: " إن قوماً أولهم غسان، وآخرهم الأنصار، لكرام"، وكان أهل يثرب يلحقون نسبهم بنسب غسان، ويرجعون نسهم ونسب غسان إلى الأزد، ونسب الأزد إلى اليمن.

لقد كان من المعقول استعمال لفظة "المهاجرين" في مقابل "الأنصار"، إلا أن الجانبين لم يستعملاها إلا قليلاً، وإنما استعملا لفظتي قريش ومعد، كما استعملا "قريشاً" في مقابل

"يمن". وقد افتخرت قريش بمعد، وبالنبوة، فأجابهم الأنصار بأن أم الرسول من بني النجار أخوال النبي، وهم من المدينة، وبأنهم كانوا أول من آمن به ونصره، وبأن المتنبيين كانوا من قبائل معد.

ولو كتب لمصطلح "الأنصار" بالبقاء، ولو كان عهد التدوين بعيداً عنه، لصار ولا شك نسباً من الأنساب، ولصارت اللفظة اسم أب لقبيلة، كما صارت الألفاظ المذكورة التي خلدت لأنها الألفاظ الجاهلية، فلما صار التدوين، كان الناس يتداولونها على أنها أنساب وأسماء.

واستعملت لفظة "اليمانية" في مقابل "النزارية"، في العصر الأموي، ويظهر أنها تغلبت على لفظة "الأنصار" وقضت عليها، وهي تعني القبائل التي ترجع أن أنسابها إلى اليمن، أما "النزارية" فقد عنت كل القبائل العدنانية.

وقد كان بين الحزبين نزاع شديد، ولكلٍّ شيعة نسابون ومدافعون ومهاجمون، وقد أثر هذا النزاع تأثيرا خطيراً في وضع الأنساب.

ويرجع بعض الباحثين انقسام العرب إلى قحطانيين و عدنانيين إلى هذا النزاع: نزاع "يثرب" ومكة قبل الإسلام، ويرجعه آخرون إلى التنازع الطبيعي الذي هو بين البداوة والحضارة. فقد كان أهل يثرب أي اليمن كما يقولون أصحاب حضارة وملك، أما أهل مكة ومن والاهم، فقد كانوا أعراباً أو شبه أعراب، ومن هنا اختلفت طبيعة أهل يثرب عن طبيعة

أهل مكة، ووقع النزاع والتنافس بين الجماعتين، وتحول إلى نسبين. وزعموا أن هذا النزاع هو نزاع الحضارة مع البداوة، نزاع أهل المدر مع آهل الوبر، نزاع "بني مدراء"، أو "أهل القارية" كما يقال لهم أيضاً، لأنهم "قارون" أي سكان القرية والقرى مع أهل البادية أي البادون نزلة البادية. قالوا: ومن هنا قيل: الحضر خلاف البدو، والحاضر خلاف البادي، و "أهل الحاضرة" و "أهل البادية" و "الحاضرة"، خلاف البادية وهي المدن والقرى والريف، وهو تقسيم، يرونه، قديماً، يرجع إلى الجاهلية. روي أن الرسول قال، حين وفد عليه قيس بن عاصم: "هذا سيد أهل الوبر". ونجد مثل ذلك في النصوص اليمانية الجاهلية، إذ أشارت إلى الأعراب كطبقة خاصة قائمة بنفسها، تمتاز عن الحضر المستقرين. ومن ثم كانت غالبية القبائل العدنانية التي يذكر أهل الأخبار أسماءها قبائل أعرابية، أي قبائل بدوية، أو قبائل غلبت البداوة عليها، وغالبية القحطانية قبائل مستقرة أو قبائل شبه حاضرة تتخت في أماكن ثابتة ومالت إلى حياة الحضارة. ولما كان الحضر أرقى فكرياً من أهل الوبر، صارت إليهم السيادة في الغالب، فتحكموا في القبائل العدنانية، وملكوا القبائل المعدية، كحكم المناذرة والغساسنة وآل كندة وغيرهم ممن يرجع نسبه النسابون إلى قحطان، قبائل عدنانية، ولم يحكم العدنانيون القحطانيين قبل الإسلام.

هذا هو رأي من يرى أن القحطانية والعدنانية كفاية عن الحضارة والبداوة، وتعبر عن أهل المدر وأهل الحضر. يستدلون على رأيهم هذا بما قلته من غلبة الحياة الحضرية

والاستقرار على القبائل التي يرجع النسابون نسبها إلى قحطان، وغلبة البداوة أو شبه البداوة على القبائل العدنانية.

وللحكم على هذه النظرية، يجب تكوين جدول بأسماء القبائل الجاهلية العدنانية منها والقحطانية، ودراسة أحوالها الاجتماعية والمواضع التي عاشت فيها في مختلف الأزمنة، وعند ذلك نستطيع الحكم على ما فيها من قوة أو ضعف، فإن في القحطانيين قبائل متبدية، وفي العدنانيين قبائل مستوطنة وأصحاب قرى، ولهذا لن تصدق تلك النظرية إلا بمثل هذه الدراسة.

ولفهم النزاع القحطاني العدناني، أو نزاع يثرب ومكة، لا بد من البحث عن موارد جاهلية وإسلامية نستعين بها على فهم طبيعة هذا النزاع. أما الموارد الجاهلية، أي الكتابات، فليس فيها حتى الساعة شيء ما محدثنا عن هذا النزاع، وأما الموارد الإسلامية، فإن شعر حسان بن ثابت، أو الشعر المنسوب إلى هذا الشاعر بتعبير أصدق وأصح، هو المرجع الأول الذي يحدثنا عن طبيعة هذا النزاع أو التحاسد الذي كان بين مكة ويثرب قبل ظهور الإسلام وعند ظهوره، إذ كان حسان نفسه من المناضلين فيه الحاملين للواء يثرب في نزاعها مع مكة، ونرى القحطانيين يروون شعره ويذكرونه في افتخارهم على العدنانيين، وقد حمل شعره جلّ مواضع فخر قحطان على عدنان، ومفاخر أهل يثرب على أهل مكة، حتى نستطيع أن

نقول إنه أحد نجاة النزاع القحطاني العدناني، باعتبار ـنه أقدم مشارك فيه يصل خبره إلينا، وأن أكثر ما تذكره القحطانية من دعاوى مركزة في شعر هذا الشاعر مذكورة فيه.

وقد وصل جلّ شعر حسان إلينا، وطبع في ديوان، راجعناه وراجعنا ما يحمل من شعر، فلم نجد فيه ذكراً لعدنان، و إنما نجد فيه اسمي "قحطان" و"معد"، ولم يرد فيه اسم الأول إلا مرة واحدة في قوله:

فلو سُئِلَتْ عنه معد بأسرها وقحطان أو باقي بقية جرهما

وأما اسم الثاني، أي "معد"، فقد ورد في مواضع بلغت سبعاً في الديوان.

غير إننا نرى في الجزء الأول من "الإكليل"، أبيات شعر نسبها "الهمداني" لحسان، ورد فيها ذكر لقحطان، ونخر به، وانتسب إليه:

لقد كان قحطان العلا القرم جدّنا له منصب في يافع الملك يشهر

ينال نجوم السعدِ إن مدّ كفه تفلّ أكف عند ذاك وتقصر

ورثنا سناءً منه برزاً ومحتداً منيف الذرى نخر الأرومة يذكر

ونرى أبياتاً أخرى من هذا النوع من الفخر، في مكان آخر من هذا الكتاب، نسبها أيضاً هذا الشاعر، هي هذه:

فنحن بنو قحطان والملك والعل ومنا نبيِّ الله هود الأخاير

وإدريس ما إن كان في الناس مثله ولا مثل ذي القرنين أبناء عابر

وصالح والمرحوم يونس بعد ما ألات به حوت بأخلب زاخر

شعيب و الياس وذو الكفل كلهم يمانون قد فازوا بطيب السرائر

ونرى أبياتاً أخرى نسبها "الهمداني" إلى "حسان" أيضاً، فيها نشر بقحطان وبقوم الشاعر، رواها على هذا النحو:

فمن يك عنّا معشر الأزد سائلاً فإنا بنو الغوث بن نبت بن مالك

ابن زيد بن كهلان نما سبأ له إلى يشجب فوق النجوم الشوابك

ويعرب يمنيه لقحطان ينتمي لهود نبيٍّ الله فوق الحبائك

يمانون عاديون، لم يلتبس بنا مناسب شابت من إلى وأولئك[1]

والأبيات المذكورة، لا يمكن أن تكون من نظم حسان، فأسلوبها غير أسلوبه في شعره، وفي بعضها ركة وضعف، ولفظة "المرحوم" عن الاصطلاحات الحادثة المتأخرة، كما أن التفاخر بالأنبياء المذكورين لم يكن معروفاً على عهده.

وأما الشعر المبتدئ بهذا البيت:

فمن يك عنا معشر الأزد سائلاً فإنا بنو الغوث بن نجت بن مالك

ففيه إضافات لا تجدها في الديوان.

وفي المضاف إليه تباين ظاهر مع أسلوب حسان في شعره، وركة بينة، وطابع الصنعة ظاهر عليه. وقد ورد في ديوانه على هذا النحو:

---

[1] ديوان حسان بن ثابت، عبد أ مهنا، ط2، 1994، ص167.

فإن تك عنا معشر الأسد سـائلاً فنحن بنو الغوث بن زيد بن مالك

لزيد بن كهلان الذي نـال عزّه قديماً دراري النبوم الشوابك

إذا القوم عدّوا مجدهم وفعالهـم وأيامهم عند التقاء المنـاسك

وجدت لنا فضلاً يقر لنا به إذا ما فخرنا كل باق وهالك

فأنت ترى أن الأبيات في الديوان خالية من نسب " سبأ" و "يشجب" و "يعرب" و "قحطان" و " هود" وغير ذلك، وأن أسلوب صياغة هذا النظم لا يمكن أن يكون من أسلوب شاعر جاهلي أو شاعر مخضرم، بل لا بد أن يكون من نظم المتأخرين، أضافه بعض المتعصبين لليمن إلى شعر حسان، ونظمه على وزن البيت الأول وطريقته، يكون أوقع في النفس، ودليلاّ على قدم ذلك النزاع.

ولا أعتقد أن هنالك حاجة تدعوني إلى إلفات نظر القارئ إلى أن الأبيات المتقدمة الواردة في ديوانه، "هي الأبيات المتقدمة عليها نفسها، أي الأبيات التي أخذتها من كتاب الإكليل للهمداني رويت بشكل آخر، بشكل يرينا أن الرواة مهما حاولوا إظهار أنهم على حرص تام في المحافظة على أصالة الشعر والمحافظة على الأصل، فإنهم لا يتمكنون من ذلك.

ونسب بعض الرواة إليه هذه الأبيات:

تعلمتم من منطق الشيخ يعرب أبينا، فصرتم معربين ذوي نفر

وكنتم قديماً ما بكم غير عجمة كلام، وكنتم كالبهائم في القفر

وهي أبيات لم ترد في ديوانه، ثم إن "يعرب"، وهو جد القحطانيين، هو أول من أعرب في لسانه، وأول من نطق بالعربية، فهو أول متكلم بها، وأول من أوجدها وكوّنها، وان العدنانيين تعلموها من أبنائه، بعد أن كان لسانهم لساناً أعجمياً. وأما من ناحية صحة نسبتها إلى شاعر الإسلام وشاعر في الأنصار، فإن في أسلوب نظمها وفي صياغة البيت الأول وجملة "منطق الشيخ يعرب"، ما فيه الكفاية لإظهار أنها مصنوعة، حملت عليه حملاً، ولا يمكن أن يكون هذا النظم من نظم أول الإسلام، حتى وإن كان من شاعر من شعراء أهل المدر في ذلك العهد.

وزعم أن حسانا ذكر القيل "ذو ثبات"، وهو من أقيال حمير، فقال هذا البيت:

وفي هكر قد كان عز ومنعة و ذو ثبات قَيْلٌ ما يكلم قائله

ولم يرد هذا البيت في ديوانه، أما أسلوب نظمه، فينبئك إن قائله يجب أن يكون شخصاً آخر من المتأخرين عن حسان، ممن كانوا يضعون الشعر على ألسنة غيرهم على نحو ما وضعوا على ألسنة التبابعة وآدم والجن.

هذا ولحسان شعر لم يرد في ديوانه، بل ورد في موارد أخرى، منه ما هو مقبول ومنه ما هو مردود، لأنه متحول وقد حمل على حسان وألصق به، ولم يغفل العلماء عنه، بل أشاروا إليه ونبهوا أن بعض الناس قد تعمدوا وضعه وحمله عليه لمآرب. قال الأصمعي في ذلك: " تنسب إليه أشياء لا تصح عنه، وهذا فيما يظهر صحيح، وكثيراً ما رأيت في سيرة

ابن هشام أبياتاً لحسان من هذا القبيل يعقبها صاحب السيرة بقوله: وأهل العلم ينفيها عن حسان". وقد نسب الجمحي الوضع على حسان إلى بعض قريش للغض منه، فقال: "وقد حمل عليه ما لم يحمل على أحد، لما تعاظمت قريش، واستتبّت، وضعوا عليه أشعاراً كثيرة، لا تليق به"، وقد كان ذلك لتعرضه بهم، ولتعصبه المفرط ليثرب، وافتخاره بهم على قريش.

هذا و مع إفراط "حسان" في التعصب ليثرب، لا نراه يذكر قحطان إلا مرة واحدة، أما عدنان فلم يذكره في شعره قط. ولهذه الملاحظة أهمية كبيرة، لتكوين رأي في فكرة "قحطان" وعدنان في ذلك العهد، إذ إنها تدل على أن القحطانية والعدنانية لم تكن عنده على النحو الذي صارت فيه فيما بعد، بعد اشتداد النزاع بين الأنصار وأهل مكة ومن حولها في خلافة بني أمية خصوصاً، وهم عصب العدنانيين، وأنه في كل فخره بالنسب لم يتجاوز الأزد، أبناء "الغوث بن زيد بن مالك بن زيد بن كهلان"، وغسان و آل نصر.

وأما بعد إسلامه، فقد حوّل فخره وتباهيه إلى فخر بالأنصار على قريش ومضر ومعد، أي أهل مكة، بنصرة قوم للإسلام، وبنصر النبي حين خذلوه وقاوموه، فكانوا ملوك الناس قبل محمد، فلما أتى الإسلام، كان لهم النصر في نصرته، ونجد هذا الفخر واضحاً قوياً في شعره، فهو فخر أهل يثرب على أهل مكة، فخر الأنصار على مضر ومعد وقريش، فلم يصل الفخر بقومه عنده إذن إلى حد الفخر بقحطان، أو باليمن كلها على عدنان. وأما ما ورد

منه أكثر من ذلك، كما نرى في الأبيات المنسوبة إليه في الجزء الأول من الإكليل، أنه عندي من ذلك النوع المنحول الذي أضيف إليه. فالتكلف ظاهر عليه، والأسلوب مختلف عن أسلوبه، وهو من النظم المتأخر عن أيام حسان، من نظم وضّاح يتكلف قول الشعر ولا يحسن صناعته.

خذ قصيدته التي تمثل منتهى نخره بقومه، نره يقول:

ألم ترنا أولاد عمرو بن عـامر لنا شرف يعلو على كل مرتقي؟

رسا في قرار الأرض، ثم سمت له فروع تسامى كل نجم محلق

ملوك وأبناء الملوك، كـأننـا سواری نجومٍ طالعات بمشرق

إلى أن يقول:

لجفنة والقمقام عمرو بن عامرٍ وأولاد ماء المزن وابني مُحرّق

وحارثة الغطريف أو كابن منذرٍ ومثل أبي قابوس ربّ الخورنق .

فلا تجد نخره بها يتعدى حدود الفخر بالأزد وبالغساسنة وآل نصر، أي ملوك الحيرة. وهو ما وجدناه في أشعاره الأخرى. وقد عاب في هذه القصيدة "قيساً" و "خندفاً" لأنهما قاومتا الرسول وآذتاه، مما يدل على أن هذين الاسمين كانا معروفين قبل الإسلام.

هذا، وقد أضاف أهل الأخبار إلى قصيدة حسان التي مدح فيها الملك "جبلة بن الأيهم"، ومطلعها: لمن الدار أقفرت بمغـان بين أعلى اليرموك والصمان .[1]

وهذا البيت: أشهرنها فإن ملكك بالشـام إلى الروم فخر كل يماني.

لم يرد ذكره في الديوان، وهو بيت يتحدث كما ترى عن فخر باليمن: أصل الغساسنة، وأهل يثرب، وكل قحطان. وأغلب ظني أنه من الأبيات المدسوسة، وضعه أحد المتعصبين لليمن ودسّه في القصيدة.

هذا وقد نسب إلى النعمان بن بشير الأنصاري شعر قيل إنه قاله في هذا الباب، ونسب إلى الطرماح بن حكيم مثل ذلك، وهو أيضاً شاعر من شعراء الأنصار، وعلينا أن ندرس شعرهما، وشعر أمثالهما، وشعر شعراء قريش أيضاً دراسة نقد وتمحيص نميز بها بين صحيحه وفاسده، لنتمكن بذلك من تكوين رأي علمي صحيح في القحطانية والعدنانية وتأريخ ظهورهما. ولو تيسر لنا ديوان الأنصار أو دواوين الأنصار، لزادت معارفنا، ولا شك، في هذا الباب وتمكنا من تكوين رأي في تلك العصبية القبلية بصورة أصح وأدق ولا شك.

وقد ظل العرب عبر تاريخهم، وفي كل العصور، يعتزون بالحسب والنسب، وهذا أمر لا تهاون ولا تفريط فيه، يرقى إلى مرتبة القداسة، فلا يجرؤ أحد على المساس به، أو التعرض

[1] ديوان حسان بن ثابت، عبد أ مهنا، ط2، 1994، ص247.

له بأية وسيلة، وإلا فالحرب والعداوة التي قد تمتد أجيالا، فقد تهدأ أحيانا، ولكنه الهدوء الذي يسبق العاصفة.

إذن، فالفخر بالحسب والنسب من أهم سمات العرب، ومن أخص خصائصهم، لذا وجدنا أن الشعر وهو ديوان العرب، وقد سجل لنا ، منذ العصر الجاهلي، ومرورا بما تلاه من العصور- غزارة القصائد التي سجلت ما كان عليه هذا الاعتزاز، وما وصل إليه، و انظروا إلى قول الشاعر المتلمس :

ومن كان ذا نسب كريم و لم يكن له حسب كان اللئيم المذمما.

بل يؤكد اهتمام العرب بالحسب و النسب قول النبي صلى الله عليه و سلم رواية عن أبي مالك الأشعري، قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة.

و إن أغراض الشعر العربي، وأهمها: الفخر والمديح ونقيضه الهجاء والرثاء، كلها تدور في حلقة الحسب والنسب، وهو ما يعكس جلياً ما كانت عليه الحياة الاجتماعية آنذاك.

عاش العرب في شبه الجزيرة العربية، في الصحراء الجرداء، فلا ظل ولا خضرة ولا ماء.. وأحيانا في كنف الجبال وما تعكسه من الوعورة، كل هذه الطبيعة قد خلعت خصائصها

على سكانها، وطبعتهم بطابعها الخاص الذي أهلهم لأن يتكيفوا معها ليعيشوا حياتهم، فلا خيار آخر أمامهم.

ومن هنا كان الارتحال ديدن القبائل العربية، فلا مفر من تتبع الخضرة والماء وهي متغيرة دوماً، لا يستقر على حال لها شان.. فقد يكون هناك جدب يهلك الزرع والضرع، وقحط يضر البلاد والعباد.. وقد تمطر السماء بغزارة فتسيل الأودية وتخضر الأرض، و ينعم بها الحيوان والإنسان.

ومن مفاخر العرب الاعتزاز بالقبيلة والأب والخال والعم، ويمدح المرء بأنه معمٌّ مخولُ، أي جمع المجد من طرفيه..

ولحكمة بالغة اصطفى الله سبحانه وتعالى، النبي محمداً صلى الله عليه وسلم، من قريش أعظم القبائل العربية ، جده عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف، ذروة الحسب والنسب، وبهذا فخر الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام بقوله: أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب. وقال : أنا أفصح العرب ، بيد أني من قريش.

وكان الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم، يقول إذا رأى الصحابي سعد بن أبي وقاص: هذا خالي ، فليرني امرؤ خاله!!

وفي العصر الجاهلي كان للاعتزاز بالحسب والنسب ، شأن بلغ الذروة، فالشعراء والخطباء

في أسواقهم ،المربد وعكاظ يتبارون في الفخر بقبائلهم وأمجادهم، فهذا عمرو بن كلثوم يقول:

لنا الدنيا ومن أضحى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا

إذا بلغ الفطام لنا رضيع   تخر له الجبابر ساجدينا

وتقول الخنساء :

وإن صخراً لحامينا وسيدنا   وإن صخراً إذا نشتوا لنحار

وفي نقائض جرير والفرزدق بلغ الفخر بالحسب والنسب ذروته، وكان هناك سجال بينهما أثرى الشعر العربي، وزاده التصاقا بالواقع المعاش آنذاك. حتى قال الشاعر:

ذهب الفرزدق بالفخار وإنما   حلو الكلام ومرُّه لجرير

قال الفرزدق: أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

فأجابه جرير: هذا ابن عمي في دمشق خليفة   لو شئت ساقكم إليّ قطينا

فغضب الخليفة عبدالملك بن مروان لهذا وقال: والله ما زاد ابن الفاعلة ، إلا أن جعلني شرطياً له! ولله لو قال: لو شاء لسقتهم إليه.

تعدى جرير حدوده ، وتجاوز الخطوط الحمر، ليجعل من نفسه سيداً آمراً، والخليفة عبداً مأموراً!

وقال جرير: وكنتم لنا الأتباع في كل موقف وريش الذنابى تابع للقوادم

وقال أيضاً مفتخراً:

ومنا رسول الله حقاً ولم يزل   لنا بطن بطحاوي مِنىً وقبابها

وإن لنا نجداً وغور تهامة   نسوق جبال العز شماً هضابها

ورد الفرزدق قائلاً:

ومنا الذي لا ينطق الناس عنده   ولكن هو المستأذن المتصرف

إذا هبط الناس المحصّب من منى عشية يوم النحر من حيث عرّفوا

ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا وإن نحن أومأنا إلى الناس وقّفوا

وقال:

فواعجباً حتى كليب تسبني   كأن أباها نهشل أو مجاشع

وقال في مدح زين العابدين:

وليس قولك من هذا بضائره العرب تعرف من أنكرت والعجم

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم

هذا ابن خير عباد الله كلهم هذا التقيّ النقيّ الطاهرُ العلمُ

ما قال لا قطّ إلا في تشهده   لولا التشهد كانت لاؤه نعمُ

وقال جرير معرّضاً بوضاعة النسب لدى خصمه:

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

وإنك لو لقيت عبيد تيم   وتيماً، قلت: أيهم العبيد؟

وقال:

ملكنا فكان العفو منا سجية فلما ملكتم سال بالدم أبطح

وقال آخر معتزاً بنسبه:

قيس أبو الأشعث بطريق اليمن لا يسأل السائل عنه: ابن من؟

فهو أشهر من أن يُعرّف، وسارت بذكره الركبان.

وقال مهيار الديلمي:

لا تخالي نسباً يخفضني   أنا من يرضيكِ عند النسب

وها هو أبو فراس الحمداني يخاطب سيف الدولة، معاتباً:

أتنكر أني شكوت الزمان   وأني عتبتك فيمن عتب؟

ومن أين ينكرني الأبعدون   أمن نقص جد أم من نقص أب؟

ألستُ وإياك من أسرة   وبيني وبينك عرق النسب؟

ولم يذهب شعراء العصر الحديث بعيداً عن أسلافهم، فاقتفوا أثرهم، ونهجوا نهجهم، وها هو الشاعر السعودي محمد بن عثيمين يمدح الملك عبد العزيز، مشيدا بحسبه ونسبه وإنجازاته، فيقول:

وليس يبتني العلا إلا ندى ووغى هما المعارج للأسنى من الرتب

ومشمعل أخو عزم يشيعه   قلب صروم إذا ما هم لم يهب

ذاك الإمام الذي كادت عزائمه تسمو به فوق هام النسر والقطب

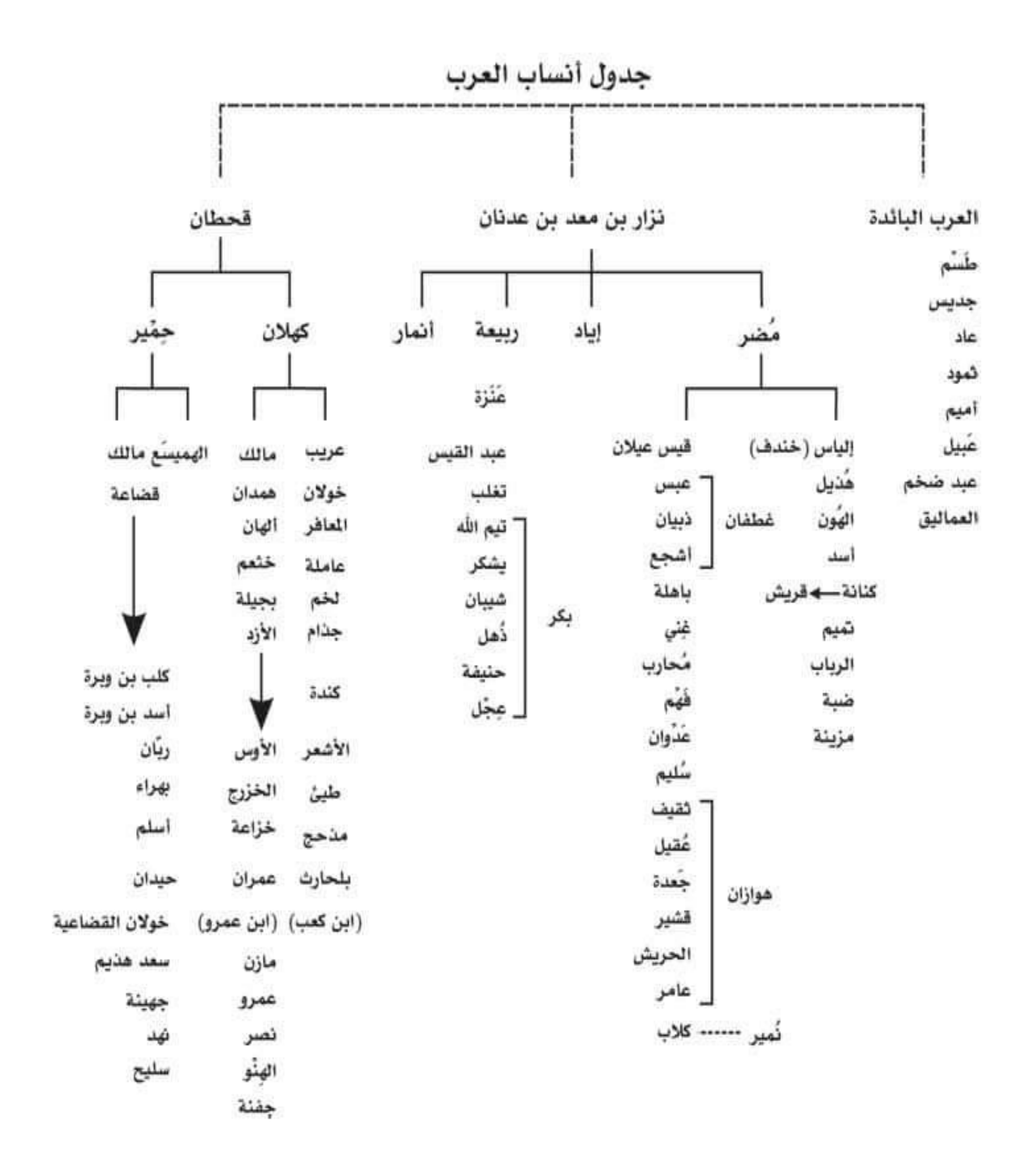
ليث الليوث أخو الهيجاء مضرمها السيد المنجب بن السادة النجب

قوم هم زينة الدنيا وبهجتها   وهم لها عمد ممدودة الطنب

ولعل فيما أثبتناه من النصوص ما يدل دلالة واضحة أن العرب أمة مجيدة ، لها مناقب فريدة ، وخصال تميزها عن غيرها من الأمم، تؤهلها للقيادة والسيادة ، ويكفيها فخراً أن الله سبحانه وتعالى رسّخ هذه القيم الفاضلة وعززها بأن اختار منها خاتم الأنبياء والرسل ، محمداً بن عبد الله "صلى الله عليه وسلم"، الذي بلّغ الرسالة وأدى الأمانة، ونصح الأمة.. وأنزل الله القرآن الكريم بلسانها ،" إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون".. وجعل البيت الحرام في أرضها ، قبلة المسلمين في صلاتهم وحجهم، ومهوى أفئدتهم. وهذا شرف عظيم أي شرف! وسؤدد خالد على مر العصور لا ينافسه سؤدد.

ولقد حارب الإسلام العصبية الجاهلية، وآخى الرسول بين المهاجرين والأنصار، وحالف بين قريش وأهل يثرب، ونهى عن أحلاف الجاهلية، وروي عنه إنه قال: "لا حلف في الإسلام"، لما ينتج عنه من فتن ومن قتال بين القبائل وغارات، ولأن الإسلام قد عوّض عن الحلف، وزاده شدة بنزوله. "وما كان من حلف في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا

شدة". وعدّ "التعرب" بعد الهجرة، أي أن يعود المرء إلى البادية ويقيم مع الأعراب، كبيره من الكبائر، حتى عدّ من يعود إلى موضعه من البادية بعد الهجرة كالمرتد، ومع ذلك، لم يكن من الممكن تنامي العصبيات، وغسل آثار الجاهلية، وطمس معالمها تماماً، فتحزبت القبائل وتكتلت، وكانت تحارب على أنها همدان، أو ربيعة، أو طيء، أو مضر، أو قريش، أو قيس، أو الأزد، أو ربيعة، أو تميم، أو غير ذلك من أسماء قبائل.



جدول أنساب العرب
العرب البائدة
طَسْم
جديس
عاد
ثمود
أميم
عَبيل
عبد ضخم
العماليق
نزار بن معد بن عدنان
مُضر
إياد
ربيعة
أنمار
إلياس (خندف)
هُذيل
الهُون
أسد
كنانة ← قريش
تميم
الرباب
ضبة
مزينة
قيس عيلان
عبس
ذبيان
أشجع
غطفان
باهلة
غني
مُحارب
فَهْم
عَدْوان
سُليم
ثقيف
عُقيل
جَعدة
قشير
الحريش
عامر
هوازان
نُمير ------ كلاب
عَنَزة
عبد القيس
تغلب
تيم الله
يشكر
شيبان
ذُهل
حنيفة
عِجْل
بكر
قحطان
كهلان
حِمْيَر
عريب
خولان
المعافر
عاملة
لخم
جذام
كندة
الأشعر
طيئ
مذحج
بلحارث
(ابن كعب)
مالك
همدان
ألهان
خثعم
بجيلة
الأزد
الأوس
الخزرج
خزاعة
عمران
(ابن عمرو)
مازن
عمرو
نصر
الهِنْو
جفنة
الهميسع مالك
قضاعة
كلب بن وبرة
أسد بن وبرة
ربّان
بهراء
أسلم
حيدان
خولان القضاعية
سعد هذيم
جهينة
نهد
سليح

و الحق إن ما نسميه قحطانية أو عدنانية إنما هو صفحة من صفحات النزاع الحزبي عند العرب في الإسلام، شاء أصحابه ومثيروه رجعه إلى الماضي البعيد، ووضع تأريخ قديم له، فجعلوا له أصولاً زعموا أنها ترجع إلى ما قبل الإسلام بكثير، ورووا في ذلك شعراً لا يخرج في نظرنا عن هذا الشعر الذي يحفظه الرواة على لسان آدم و هابيل وقابيل والجن.

وفي هذا الصراع القحطاني العدناني العنيف شرع في تدوين الأنساب وتثبيتها في القراطيس والكتب. فكان لهذا الصراع ولوضع القبائل وتكتلاتها في هذا الوقت أثر خطير في تثبيت أنساب القبائل وتسجيلها، ليس في هذا العهد فقط، بل في تثبيت أنساب قبائل الجاهلية وتسجيلها أيضاً. إذ سجلت هذه الأنساب: جاهلية و إسلامية على الرأي السائد في النسب يوم شرع في التسجيل والتدوين، أي في أوج هذه العصبية الضيقة التي عمت الناس في صدر الإسلام. ومن هنا كان لا بد لفهم الفكرة القحطانية العدنانية من الإلمام بنزاع قحطان وعدنان في الإسلام.

والذين قاموا بتسجيل الأنساب وتدوينها وتثبيتها في الكتب، كانوا هم أنفسهم من أصحاب العصبية لنزار أو لليمن ومن المتأثرين بالأحوال السياسية لذلك العهد. ولهذا نجد في أقوال بعضهم تحزباً وتطرفا وميلاً إلى تأييد فريق على فريق. ومن هنا كان لا بد لنا من التنبه لهذه العصبية، واتخاذ الحيطة والحذر عند دراسة هذا النزاع القحطاني العدناني.

وقد استعملت في هذا العهد "مضر" في مقابل "الأزد"، كما استعملت الأزد في مقابل تميم، وورد "أهل اليمن" أو اليمانية. ولكننا قلما نسمع في نداء القبائل وأخبار هذه الحروب التي وقعت في هذا العهد استعمال كلمة "عدنان" في مقابل "قحطان"، ويقال مثل ذلك في الأشعار أيضاً، في مثل شعر "الفرزدق" الذي استعمل كلمة "قحطان" في مقابل كلمة "نزار" وكلمة "لحن" في مقابل "نزار" أو "الأزد" في مقابل "نزار". كما استعمل الحكم بن عبدل "قحطان" في مقابل "معد". وقد ذكر الأعشى في شعر له: "ومن معدّ قد أتى ابن عدنان"، وذلك في مقابل "قحطان". وفي أيام معاوية وابنه "يزيد" و "مروان بن الحكم"، نالت "كلب" مركزاً سامياً، لتزوج معاوية امرأة من كلب، هي "ميسون بنت بحدَل"، فأصبحت هي والقبائل التي تؤيدها مقربة عند الخلفاء، مع أن الخلفاء من قريش، وقريش من قيس. وهذا مما أغضب قيساً المعروفة بعدائها لكلب .وقد كانت لفظة "قيس" في هذا العهد ترادف كلمة "معد" و "مضر" و "نزار". وأما "كلب"، فترادفه اليمن.وقد عرفت المعركة التي وقعت في "مرج راهط" بين مروان وابن الزبير بأنها معركة "قيس" و "كلب" لأن قيساً حاربت فيها عن "ابن الزبير". أما كلب، فقاتلت عن مروان، و قد أوجد هذا الانتصار حقداً كبيراً بين "قيس" وحلفائها من القبائل، وبين كلب وأنصارها من القبائل التي أدعت إنها من اليمن، فوقعت حروب بين قيس وكلب هلك فيها خلق كثير من الفريقين. ولعب دوراً مهماً في تكتّل القبائل وفي تجمع القحطانيين والعدنانيين.

وقد أسهم الخلفاء الذين جاؤوا بعد "عبد الملك"، ويا للأسف، في هذا النزاع، متأثرين بعاطفتهم وبدمهم من الأمهات، فكان بعضهم يؤيد القيسيين إذا كانت أمهم من قيس، وكان آخرون يؤيدون "كلباً" إذا كانت أمهم من اليمن، وسار على هذه السياسة الولاة والعمال، فكانت النتيجة تكتل القبائل وانقسامها إلى معسكرين "قيس" و "يمن.

ووقعت وقائع دموية بين يمن و قيس، أنهكت العرب جميعاً، وصارت من جملة العوامل، التي عجلت بسقوط الأمويين.

وحمل الشعراء مشاعل هذا النزاع، وأمدّوا ناره بوقود غزير. نظموا القصائد في مدح قيس وفي ذم يمن وذم قيس بحسب قبيلة الشاعر ونسبه. ساهم فيه الأخطل والكُميت ودِعْبل الخزاعي وجرير بن عطية بن الخَطَفَى التيميّ و إسحاق بن سويد العَدَوي وغيرهم، فكان مدح وكان ذم، وكان تباه وافتخار، وكان قذع وهجاء. وبدلاً من أن يتدخل الحكام و مسيرو الأمة في إخماد نار هذه الفتنة و إسكات الشعراء جمعاً للصف، ساهموا هم أنفسهم كما قلت في هذه المعركة وشجعوا المحاربين فيها، ففرقوا بين العرب بسياستهم هذه وأطمعوا الأعاجم فيهم، وجعلوا العرب يقاتل بعضهم بعضاً، و بذلك توقفت الفتوحات العربية الإسلامية، نتيجة لهذه السياسة المفرقة الخرقاء.

ولم يقف هذا النزاع على التباهي بقحطان وعدنان وبالأيام وبالشجعان، بل تجاوز ذلك إلى التباهي بارتباط كل فريق بجماعة من الأعاجم بروابط الدم والنسب والثقافة، فافتخرت

النزارية بالفرسّ على اليمانية، وعدوهم من ولد "إسحاق ابن إبراهيم" وافتخروا بإبراهيم جد العرب والفرس. ونظم "جرير بن عطية ابن الخَطَفَى التميمي"، في ذلك شعراً، جاء فيه:

أبونا خليل الله لا تنكرونه فأكرم بإبراهيم جداً و مفخرا

وأبناء إسحاق الليوث إذا ارتدوا حمائل موت لابسين السّنَّورا

إذا افتخروا عدّوا الصبهبذ منهم و كسرى وعدّوا الهرمزان وقيصرا

أبونا أبو إسحاق بجمع بيننا أب لا نبالي بعده من تأخرا

أبونا خليل الله، والله ربنا رضينا بما أعطى الإلهَ وقدرا

ومن هذا القبيل، قول إسحاق بن سويد العدوي:

إذا افتخرت قحطان يوماً بسؤدد أتى فخرنا أعلى عليها وأسودا

ملكناهم بدأً بإسحاق عّمنا وكانوا لنا عوناً على الدهر أعبدا

ويجمعنا والغر أبناء فارس أب لا نبالي بعده من تفردا

وقول بعض النزارية:

و إسحاق وإسماعيل مدا معالي الفخر والحسب اللبابا

فوارس فارس وبنو نزار كلا الفرعين قد كبرا وطابا

ولم يقف النزاريون عند هذا الحدّ، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك، فزعموا أن هذا النسب قديم، وأن قرابة الفرس بالعدنانيين قديمة، وأن الفرس كانت في سالف الدهر تقصد إلى

البيت الحرام بالنذور العظام تعظيماً لإبراهيم الخليل بانيه، وأنه عندهم أجل الهيا كل السبعة العظيمة والبيوت المشرفة في العالم، وأن رجلاً تولاه وأعطاه العدة والبقاء، واستشهدوا على صحة دعواهم بشعر زعموا أن قائله هو أحد شعراء الجاهلية: زمزمت الفرس على زمزم=وذاك في سالفها الأقدم وترتب على هذا وضع نسب الفرس يتصل بنسب العرب العدنانيين، فزعموا أن "منو شهر" الذي ينتسب اليه الفرس هو "منشخر بن منشخرباغ"، و "هو يعيش بن ويزك"، و "ويزك" هو اسحاق بن إبراهيم الخليل، واستشهدوا على زعمهم هذا بشعر، قالوا إن بعض شعراء الفرس في الإسلام قاله مفتخراً: أبونا ويزك وبه أسامي=إذا افتخر المفاخر بالولاده أبونا ويزك عبد رسول=له شرف الرسالة والزهاده

أما "يعيش بن ويزك" جد الفرس الجديد، فهو "عيسو"Esau" "، وفي العبرانية"Usu" ، ومعناها "مشعر" أو "خشن"، وهو شقيق يعقوب وجد الأدوميين في التوراة وابن إسحاق. وأما "ويرزك" فهو "يزك" أو "إيزك "Icaak" "Isaac" "وهو "إسحاق"، وهو في العبرانية "يصحق" "يصحك" "يصحاك "Yishak" "أي "الضحاك(. ويرى علماء التوراة إن الأصل اسم قبيلة كان يقال لها "يصحقيل" "يصحق ال" "يضحك ال "Yishhakel" " "Yishakil"، وهو والد "عيسو" و "يعقوب."

وقد أسهم بعض الفرس أنفسهم في إذاعة هذا النسب ونشره، وقد استشهد على صحة دعواه بالأشعار المذكورة التي تفتخر بالفرس على اليمانية، وأنهم ولد أبيهم إبراهيم. ولعلهم قالوا

ذلك تقرباً إلى الحكومة، وهي عدنانية، ولعوامل سياسية أخرى، منها تقريب الفرس من العرب، وضمان تعاونهم مع الخلافة في وجه النعرات القومية التي ظهرت في إيران.

ولم يكتف العدنانيون بقرابتهم للفرس و للإسرائيليين، بل زعموا أن الأكراد من أقربائهم كذلك، وأنهم من نسل ربيعة بن نزار بن بكر بن وائل، أو أنهم من نسل ربيعة بن نزار بن معد، أو أنهم من نسل مضر بن نزار، أو من ولد كرد بن مرد بن صعصعة بن هوازن، وأنهم انفردوا في قديم الزمان لوقائع ودماء كانت بينهم و بين غسان، وأنهم اعتصموا بالجبال فحادوا عن اللغة العربية لما جاورهم من الاسم، وصارت لغتهم أعجمية، فذلك على رأي أهل الأخبار بدء نسب الأكراد.

وقد لقي هذا النسب الجديد للأكراد تشجيعاً من بعض الأكراد في أيام العباسيين، وربما في أيام أواخر الدولة الأموية كذلك، فأيدوه وانقسموا أيضاً فرقاً في شجرات النسب، فمنهم من أخذ بشجرة كرد بن مرد، ومنهم من أخذ بانتسابهم إلى سبيع بن هوازن، ومنهم من انتسب إلى ربيعة ثم إلى بكر بن وائل.

وكان من الطبيعي أن يجعل القحطانيون أعداء الفرس من ذوي أرحامهم، وهم اليونان فقالوا: إن يونان أخ لقحطان، وإنه من ولد عابر بن شالخ، إنه خرج من أرض اليمن في جماعة من ولده وأهله ومن انضاف إلى جملته من أقاصي بلاد المغرب فأقام هناك، وانسل في تلك الديار، واستعجم لسانه ووازى من كان هناك في اللغة الأعجمية من الإفرنج،

فزالت نسبته، وانقطع نسبه وصار منسياً في ديار اليمن. وقالوا أيضاً أن الاسكندر من تبع.

وكان من الطبيعي انزعاج العدنانيين من ربط نسب قحطان بيونان، فانبروا للرد عليه، وكيف يرضون أن يكون للقحطانيين أبناء عمّ على شاكلة اليونانيين، وقد كانوا أمهر من الفرس، ولهم دولة كبرى. فقال أحدهم، وهو أبو العباس الناشئ: وتخلط يوناناً بقحطان

ضلّةً لَعَمْري لقد باعدت بينهما جداً

وأضاف القحطانيون الأتراك اليهم أيضاً، فزعموا أن معظم أجناس الترك وهم "التبت" من حمير، وأن التبع "شمر يرعش" أو تبعاً آخر ربتهم هناك، وأن "شمر يرعش" هو الذي أمر ببناء "سمرقند"، إلى غير ذلك من أقوال لا ترضي العدنانيين بالطبع، وفي ذلك يقول "دِعْبلِ بن علي الخُزاعي" في قصيدته التي يردّ بها على "الكميت"، ويفخر فيها بمن سلف من ملوكهم وسير في الأرض، وأن لهم من الفضل ما ليس لمعدّ بن عدنان، فقال في شعره:

همو كتبوا الكتّاب بباب مَروٍ وباب الصين كانوا الكاتبينـا

وهم جمعوا الجموع بسمرقندٍ وهم غرسوا هناك التبتينـا

وأضافوا "الضحّاك" إليهم، وصيروه من "الأزد"، والأزد من اليمن، فهو يماني إذن أصيل. و"الضحّاك" هو "بيورا سب" عند أهل الأخبار، وقد ملكوه ألف سنة، وهو بطل أسطوري عند الفرس، وقد أخذ أهل الأخبار "ضحّاكهم" هذا من "إسحاق"، كما أخذ العدنانيون "ويزكهم" من "إسحاق" فصيروه "منشخر" على نحو ما ذكرت، وقد قلت إنّ معنى

"إسحاق" في العبرانية الضحّاك، فالقحطانيون فعلوا كفعل العدنانيين، لجأوا إلى إسحاق فصيروه "الضحّاك"، وبدلاً من أن يقولوا إنه "ويزك" من اسم "إسحاق" في العبرانية أخذوا معنى الاسم فصيروه اسماً عربياً هو الضحاك، وجعلوه قحطانياً من الأزد.

وكان كل فريق يرد على مزاعم الفريق الآخر، حين يضيف إليه أمة من الأمم، فلما ادعى العدنانيون انهم هم و الإسرائيليون والأعاجم من نسب واحد، انبرى "دعبل الخزاعي" يرد عليهم في قصيدة ساخرة يقول فيها:

فان يك آل إسرائيل منكم وكنتم بالأعاجم فاخرينا

فلا تنسَ الخنازير اللواتي مسخن مع القرود الخاسئينا

بأيلة والخليج لهم رسوم وآثار قدمن وما محينا

لقد علمت نزار إن قومي إلى نصر النبوة فاخرينا

قال هذه القصيدة في الرد على "الحميت"، وهو لسان من ألسنة النزارية، وقد تعرض فيها باليمانية وتهكم عليهم.

حتى الموالي، وهم كما نعلم من أصل غير عربي، أسهموا في هذه المعركة، وحاربوا في الصفوف الأولى منها، تعصب كل منهم للجانب الذي دخل في ولائه، هذا "أبو نواس"، وهو مولى "بني حكم بن سعد العشيرة"، يتعصب للقحطانية ويدافع بكل قواه عنها، لأن "بني الحكم" من اليمن، وقد حمله تعصبه لهم على نظم قصيدة هجا فيها قبائل نزار بأسرها

وافتخر بقحطان وقبائلها، وقد أوجعت النزاريين وآلمتهم، فشكوه إلى الخليفة الرشيد، وهو منهم، فأمر بحبسه بسببها، وقيل إنه حده لأجلها، وأولها:

لست لدار عفت وغيّرهـا ضربان من قطرها و حاصبها

ثم قال مفتخراً باليمن وذاكراً للضحاك:

فنحن أرباب ناعظ ولنـا صنعاء والمسك في محاربها

وكان منا الضحاك يعبده ال خايل والطير في مساربهـا

ثم يستمر فيقول في هجاء نزار:

واهج نزارا وافرِ جلدتها وكشف الستر عن مثالبها

وأثارت هذه القصيدة جماعة من النزارية، فردت عليه، وكان منهم رجل من "بني ربيعة بن نزار"، فقال يذكر نزاراً ومناقبها، واليمن ومثالبها في قصيدة أولها:

دع مدح دار خبا و انتهى عهد معدّ بزعم عاتبهـا

ثم استمر، فقال:

فامدح معداً وافخر بمنصبها ال عالي على الناس في مناصبها

وهتك الستر عن ذوي يمن أولاد قحطان غير هائبها

وقد أنتج هذا النزاع القحطاني العدناني قصصاً وحكايات وشعراً دُوّن في الكتب، وأنتج "حديثاً" زعم أن قائله هو الرسول، قاله في مدح قحطان أو في مدح عدنان، وأحياناً في

مدح القبائل، مثل: حمير ومذحّج و همدان وغسّان، و قبائل أخرى أو في مدح بيوتات معينة من مثل هذه القبائل.

لقد تلوّن هذا النزاع بلون أدبي زاه لا يخلو من طرافة وإن كان قد أساء من الناحية السياسية إلى هذه الأمة أيما اساءة، فقد لوّن اليمانون تاريخهم القديم بألوان زاهية جميلة من القصص والحكايات والأخبار، فهم الذين زعموا أن قحطان هو ابن هود النبي، فأوصلوا نسبهم بالأنبياء، وهم الذين أوصلوا نسب قحطان إلى إسماعيل، فنّفوا بذلك أي فضل كان للعدنانيين على القحطانيين في الآباء والأجداد، وهم المسؤولون عن هذا التقسيم المشهور المعروف للعرب وجعل القحطانيين في الطبقة الأولى من العربية بالنسبة إلى العدنايين، وهم الذين نظموا في الإسلام تلك الأشعار والقصائد التي ذكرها الرواة على أنها من نظم التابعة وملوك القحطانيين، وهم الذين ساقوا تلك الحكايات عن الفتوحات العظيمة لملوك اليمن وعن حكم القحطانيين للعدنانيين و استذلالهم إياهم.

و قد ا ستغل العدنانيون ظهور الر سول بينهم، فاتخذوا من هذا الشرف ذريعة للتفاخر والتباهي على القحطانيين، وقد أجابهم اليمانيون على ذلك بأنهم هم الذين كان لهم شرف نصرة الرسول وإعلاء كلمة الله، وهم الذين كوّنوا مادة الجيش الإسلامي، وهم الذين آووا الرسول وفتحوا مكة، و تمسك العدنانيون بأذيال إبراهيم وعدّوه جدهم الخاص بهم، مع أنه جدّ العرب عامة، كما في القرآن الكريم، ونفوا كل مشاركة للقحطانيين في هذا

النسب الشريف. وقد كان لهم ما يساعدهم في تقوية حجتهم، فقد كان الرسول من صلب إسماعيل والرسول منهم، فإبراهيم هو أبو المختص بهم. ولرد دعوى الإسماعيليين هذه من اختصاص إسماعيل وإبراهيم بهم، وصل بعض رواتهم نسب قحطان بإسماعيل وإبراهيم، ولم يكتفوا بذلك فلا بد لهم من شرف زائد، ورجحان على العدنانيين الذين لم يبدأ ملكهم إلا في الإسلام، فاختصوا هوداً بهم، وجعلوه نبياً يمانيا، ثم لم يقبلوا بنبي واحد زيادة على الأنبياء الذين اختص بهم العدنانيون فأضافوا إليهم صالحاً النبي وقالوا: إنه من صميم حمير وإنه صالح بن الهميع بن ذي مؤذن نبي حمير من آل ذي رعين، وزعموا أن ثقفياً كان غلاماً له، وحصلوا بذلك على نبي وطعنوا في ثقيف، وهم من العدنانيين في الوقت نفسه، وأضافوا إليهم نبياً آخر من صميم حمير سموه أسعد تبع الكامل بن ملكي كرب بن تبع الأكبر ابن تبع الأقرن، و قالوا إنه ذو القرنين الذي قال الله تعالى فيه: "أهم خيرُ أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين". وذكروا أنه كان من أعظم التبابعة وأفصح شعراء العرب، ولذلك قال بعض العلماء فيه "ذهب ملك تبع بشعره، ولولا ذلك لما قدم عليه شاعر من العرب" وقالوا: "نهى النبي عن سبه، لأنه آمن به قبل ظهوره بسبع مئة عام، وليس ذلك إلا بوحي من الله عز وجلّ". وهو أول من كسا البيت، وجعل له مفتاحاً من ذهب، وأوردوا له أشعاراً لإثبات إيمانه بالرسول تمنى فيها لو أدرك أيامه إذن لآمن به، ولكان له وزيراً وابن عم، ولألزم طاعته كل من على الأرض من عرب وعجم،

ورووا له أبياتاً في البيت الحرام، وكيف كان يقصده فيمكث فيه تسعة أشهر، وكيف كان ينحر في العام سبعين ألفاً من البدن.

وزعموا فوق هذا كله أنه تنبأ بعودة ملك حمير حيث يظهر المهدي منهم، وهو رجل حميري سبئي الأبوين، يعيد الملك إلى حمير بالعدل، في هذه الأبيات التي رواها عُبَيْد بن شَرْيَةَ الجُرهمي:

ومن العجائب أن حمير سوف تعلى بالقهور

ويسودها أهل الموا شي من نضير أو نضر

يعني النضر بن كنانة، وهو قريش.

ويثيرها المنصور من جني أزال كالصقور

وهو الإمام المرتجى المذكور من قدم الدهور

وأنه قال:

بمنصور صير المرتجى يعود من الملك ما قد ذهب

ويرجع بالعدل سلطانها على الناس في عجمها والعرب

و قالوا إن المنصور هو لقب القائم المنتظر الذي سيظهر ليعيد ملك حمير المسلوب.

وذكروا إنه كان في جملة ما قاله من شعر قوله:

واعلم بنيَّ بأن كل قبيلة ستذل إن نهضت لها قحطان

إلى غير ذلك من أشعار نسبت إليه وإلى غيره من التبابعة تتحدث عن حقد القحطانيين على العدنانيين، وعن ألمهم الشديد لفراق ملكهم وانتقال الحكم منهم إلى المكيين، وقد كانوا من أتباعهم بالأمس، فعللوا أنفسهم بالتحدث عن الماضي، ثم صبروا أنفسهم بالحديث عن ملك سيعود، وعن دولة ستأتي، وعن مهدي يأخذ بالثأر، كالذي يفعله المغلوبون، وجعلوا ذا القرنيين الذي ورد اسمه في سورة الكهف منهم، فقالوا: هو الهميسع بن عمرو بن زيد ابن كهلان، أو الصعب بن عبد الله بن مالك بن زيد بن سدد بن حمير الأصغر، أو تبع الأكبر بن تبع الأقرن، أو تبع الأقرن، وكان مؤمناً عالماً عادلاً، ملك جميع الأرض وطافها، ومات في شمال بلاد الروم حيث يكون النهار ليلاً إذا انتهت الشمس إلى برج الجدي. وقد كان يقول الشعر، وهو الذي بشر بالنبي في شعره، وطبيعي أن يكون واضعو هذه الأشعار أناساً من الأنصار ومن بقية فروع قحطان.

وتعلق متعصبو اليمانية بالأبنية الفخمة وبالمدن الكبرى، فجعلوها من أبنية ملوكهم أو من أبنية أسلافهم العرب العاربة، وقد ذكر المسعودي أن من اليمانية من يرى أن الهرمين الذين في الجانب الغربي من فُسطاط مصر، هما قبرا "شداد بن عاد" وغيره من ملوكهم السالفة الذين غلبوا على بلاد مصر في قديم الدهر، وهم العرب العاربة من العماليق وغيرهم"، و نسبوا لملوكهم الفتوحات الضخمة في الشرق والغرب.

وأضافوا إليهم لقمان الحكيم، زعموا أنه لقمان الحميري، وقالوا أنه كان حكيماً عالماً بعلم الأبدان والأزمان، وهو الذي وقّت المواقيت، وسمى الشهور بأسماء مواقيتها، وزعموا أن "ياسر ينعم" ملك بعد سليمان بن داوود، وسمي ينعم، لأنه ردّ الملك إلى حمير بعد ذهابه، وأن الضحاك ملك من الأزد كان في وقت إبراهيم فنصره، وبذلك كانت للقحطانيين منة قديمة على إبراهيم وعلى العدنانيين بصورة خاصة، وقالوا أشياء أخرى كثيرة، قد يخرجنا ذكرها من صلب هذا الموضوع من أعمال وفتوحات "لشمر يرعش" وغيره من التبابعة.

وقد دوّن العدنانيون تاريخهم، واستعانوا بالشعر، فوضعوا منه ما شاءوا في الرد على القحطانيين. قال ابن سلام "نظرت قريش فإذا حظها من الشعر قليل في الجاهلية، فاستكثرت منه في الإسلام"، وعقبوا على الروايات القحطانية، فلما ادعى اليمانيون مثلاً أن تبعهم "أبا كرب" فتح العراق والشام والحجاز، وأنه امتلك البيت الحرام، ونكل بالعدنانيين شر تنكيل، وأنه قال شعراً ،منه:

لست بالتبع اليماني إن لم تركض الخيل في سواد العراق

أو تؤدي ربيعة الخرج قسراً أو تعذني عوائق العواق

قال العدنانيون: نعم، وقِد كانت بين تبع هذا وقبائل نزار بن معد وقائع وحروب، واجتمعا عليه معد من ربيعة ومضر وإياد وأنمار، فانتصرت عليه، وأخذت الثأر منه، وفي ذلك قال أبُو دوَاد الإيادي:

ضربنا على تبعّ حربه حبال البرود وخرج الذهب

وولى أبو كرب هارباً وكان جباناً كثير الرهب

وأتبعته فهوى للجبين وكان العزيز بها من غلب

إلى غير ذلك من القصص والحكايات التي وضعها الرواة في الإسلام حين احتدم الخلاف بين الانصار وقريش، سجلت في الكتب، ورويت للناس، وانتشرت بينهم على أنها أمور واقعية.

وقد كان لكل فريق رواة وأهل أخبار يقصون على الناس قصصاً وأخباراً في النزاع القحطاني العدناني، فوضع "عُبيد بن شَرية الجُرهمي" كثيراً من القصص والأشعار عن العرب الأولى وعن القحطانيين، وضع ذلك لمعاوية ابن أبي سفيان، وكان معاوية مغرماً بسماع أساطير الأولين وأخبار الماضين.

ووضع "يزيد بن ربيعة بن مفرغ" المتوفى سنة "69" للهجرة، وهو شاعر متعصب لليمن، قصص "تبع"، جاء في كتاب الأغاني: " سئل الأصمعي عن شعر تبع و قصته و من وضعهما، فقال: ابن مفرغ، وذلك أن يزيد بن معاوية لما سيره إلى الشام وتخلصه من عبيد الله بن زياد، أنزله الجزيرة وكان مقيماً برأس عين، وزعم أنه من حمير، ووضع سيرة تبع وأشعاره، وكان النمر بن قاسط يدعي أنه منهم."

وظهرت كتب ضمت أخبار التبابعة وقصصهم، أشار إليها المسعودي، دعاها ب "كتب التبابعة"، وقد وقف عليها ونقل منها، وهي كما يظهر من نقله ومن نقل غيره منها من هذه الأساطير المنسوبة إلى عبيد ووهب ويزيد ابن المفرغ وأمثالهم من أصحاب القصص والأساطير.

وكان بين العدنانيين والقحطانيين جدل وكلام في لغة "إسماعيل"، فاليمانيون ومنهم "الهيثم بن عدي الطائي" كانوا يرون أن لسان "إسماعيل" الأول هو اللسان السرياني، ولم يعرف العربية، فلما جاء إلى مكة وتصاهر مع جرهم، أخذ لسانهم وتكلم به، فصار عربيا، أما النزارية، فكانت تنفي ذلك نفياً قاطعاً، وترده رداً شديداً، وتقول لو كان الحال كما تزعمون: "لوجب أن تكون لغته موافقة للغة جرهم أو لغيرها ممن نزل مكة. وقد وجدنا قحطان سرياني اللسان، وولده يعرب بخلاف لسانه، وليست منزلة يعرب عند الله أعلى من منزلة إسماعيل، ولا منزلة قحطان أعلى من منزلة إبراهيم، فأعطاه فضيلة اللسان العربي التي أعطيها يعرب بن قحطان"، فنفوا النزارية العربية عن قحطان أيضاً وصيروه كإسماعيل سرياني اللسان.

وقد عقب "المسعودي" على هذا النزاع النزاري القحطاني بقوله: "ولولد نزار وولد قحطان خطب طويل ومناظرات كثيرة لا يأتي عليها كتابنا هذا في التنازع والتفاخر بالأنبياء والملوك وغير ذلك مما قد أتينا على ذكر جمل من حجاجهم و ما أدلى به كل فريق فهم ممن

سلف وخلف"، ونجد جملاً كثيرة من هذا النوع مبثوثة في كتابيه: مروج الذهب، والتنبيه و الأشراف، تحدث عن ذلك النزاع المرّ المؤسف الذي وقع بين العرب في تلك الأيام[1].

ولعل هذه العصبية الجاهلية، هي التي حملت جماعة من المتكلمين منهم "ضرار بن عمرو بن ثمامة بن الأشرس" و "عمرو بن بحر الجاحظ" على الرغم أن "النبط" خير من العرب، لأن الرسول منهم، ففضلوهم بذلك على العدنانيين والقحطانيين، و هو قول رد العدنانيون و القحطانيون عليه و قال به المتكلمون متأثرين بآراء أهل الكتاب في أنساب أبناء إسماعيل وبآرائهم الاعتزالية التي تكره التعصب في مثل هذه الأمور، وقد ذكر "المسعودي" شيئاً من الرد الذي وضعه القحطانيون و العدنانيون ضد هؤلاء.

وأقرب تفسير إلى أنساب العرب في نظري هو إن النسب، ليس بالشكل المفهوم المعروف من الكلمة، و إنما هو كناية عن "حلف" يجمع قبائل توحدت مصالحها، واشتركت منافعها، فاتفقت على عقد حلف فيما بينها، فانضم بعضها إلى بعض، واحتمى الضعيف منها بالقوي، وتولدت من المجموع قوة ووحدة، و بذلك حافظت تلك القبائل المتحالفة على مصالحا وحقوقها. قال البكري: "فلما رأت القبائل ما وقع بينها من الاختلاف والفرقة، وتنافس الناس في الماء والكلأ، والتماسهم المعاش في المتسع، وغلبة بعضهم بعضاً على البلاد

1 مروج الذهب ومعادن الجوهر، المسعودي، ج2 ص78.

والمعاش، واستضاف القوي الضعيف، انضم الذليل منهم إلى العزيز، وحالف القليل منهم الكثير، وتباين القوم في ديارهم ومحالّهم، و انتشر كل قوم فيما يليهم."

لقد حملت الضرورات قبائل جزيرة العرب على تكوين الأحلاف، للمحافظة على الأمن و للدفاع عن مصالحها المشتركة كما تفعل الدول. و إذا دام الحلف أمداً، وبقيت هذه الرابطة التي جمعت شمل تلك القبائل متينة، فإن هذه الرابطة تنتهي إلى نسب، حيث يشعر أفراد الحلف أنهم من أسرة واحدة تسلسلت من جد واحد، وقد يحدث ما يفسد هذه الرابطة، أو ما يدعو إلى انفصال بعض قبائل الحلف، فتنضم القبائل المنفصلة إلى أحلاف أخرى، وهكذا نجد في جزيرة العرب أحلافاً تتكون، وأحلافاً قديمة تحل أو تضعف.

لم يكن في مقدور العشائر أو القبائل الصغيرة المحافظة على نفسها من غير حليف قوي، يشد أزرها إذا هاجمتها قبيلة أخرى، أو أرادت الأخذ بالثأر منها. لقد كانت معظم القبائل داخلة في هذه الأحلاف، إلا عدداً قليلا من القبائل القوية الكثيرة العدد، يذكر أهل الأخبار أنها كانت تتفاخر لذلك بنفسها، لأنها لا تعتمد على حليف يدافع عنها، بل كانت تأخذ بثأرها وتنال حقها بالسيف. و يشترك المتحالفون في الغالب في المواطن، وقد تنزل القبائل على حلفائها، وتكون الهيمنة بالطبع في هذه للقبائل الكبيرة.

وقد عرفت مثل هذه الأحلاف عند سائر الشعوب السامية كالعبرانيين مثلاً، وطالما انتهت كما انتهت عند العرب إلى نسب، حيث يشعر المتحالفون أنهم من أسرة واحدة يجمع بينهم نسب واحد. ويقال للحاف أيضاً "تحالف"، وضد اليمانين "تكلع."

ويرى "كولدتزيهر" أنه لفهم الأنساب عند العرب، لا بد من معرفة الأحلاف والتحالف فإنها أساس تكوّن أنساب القبائل، فإن هذه الأحلاف التي تجمع شمل عدد من البطون والعشائر والقبائل هي التي تكوّن القبائل والأنساب، كما أن تفكك الأحلاف وانحلا لها يسبب تفكك الأنساب وتكوين أنساب جديدة ويرى أيضاً إن الدوافع التي تكوّن هذه الأحلاف لم تكن ناشئة عن حس داخلي بوجود قرابة وصلة رحم بين المتحالفين وشعور بوعي قومي، بل كانت ناشئة عن المصالح الخاصة التي تهم العشيرة كالحماية والأخذ بالثأر وتأمين المعيشة. ولذا نجد الضعيف منها يفتش عن حليف قوي، فانضمت "كعب" مثلاً إلى "بني مازن" وهم أقوى من "كعب"، وانضمت "خزاعة" إلى "بني مدلج"، كما تحالفت "بنو عامر" مع "إياد" وأمثلة أخرى عديدة. ولما كانت المصالح الخاصة هي العامل الفعال في تأليف الأحلاف، كان أمد الحلف يتوقف في الغالب على دوام تلك المصالح. وقد تعقد الأحلاف لتنفيذ شروط اتفق عليها، فمتى نفذت أو تلكأ أحد الطرفين في التنفيذ انحل الحلف. وتعد هذه الناحية من النواحي الضعيفة في التأريخ العربي، فإن تفكير القبائل لم يكن يتجاوز عند عقدهم هذه الأحلاف مصالح العشائر أو القبائل الخاصة، لذلك نجدها

نتألف للمسائل المحلية التي تخص القبائل، ولم تكن موجهة للمدفاع عن جزيرة العرب و لمقاومة أعداء العرب. ولا يمكن أن نطلب من نظام يقوم على العصبية القبلية أن يفعل غير ذلك. فإن وطن القبيلة ضيق بضيق الأرض التي تنزل فيها، فإذا ارتحلت عنها و نزلت في أرض جديدة، كانت الأرض الجديدة الموطن الجديد، الذي تبالغ القبيلة في الدفاع عنه. و لما كانت هذه النزعة الفردية هي هدف سياسة سادة ا لقبائل، أصبحت من أهم العوائق في تكوين الحكومات المدنية الكبيرة في جزيرة العرب، ومن أبرز مظاهر الحياة السياسية قبل الإسلام.

خذ اختلاف النسابين في نسب بعض القبائل وتشككهم فيه، فإنه في الواقع دليل قوي يؤيد هذا الرأي، فقد اختلف في نسب "أنمار" مثلاً. فمنهم من عدها من ولد "نزار"، ومنهم من أضافها إلى اليمن. وا لذين يضيفونها إلى "نزار" يقولون إن انماراً من نزار، وأنمار هو شقيق ربيعة ومضر وإياد، فهو أحد أبنا نزار. دخل نسله في اليمن، فأضيفوا إليه، ومن هنا حدث هذا الاختلاف. أما اليمانية، فإنهم يرون أن أنماراً هو منهم، وقد كان أحد ولد "سبأ" العشرة. فهو عندهم شقيق لخم وجذام وعاملة وغسعان وحمير والأزد ومذحج وكنانة والأشعرين ويرون أن بجيلة، وخثعماً من أنمار. ويستدلون على ذلك بحديث ينسبونه إلى الرسول.

وأما الذين يرجعون نسبه إلى "نزار" فيستدلون على نسبه هذا بحديث ينسبونه إلى الرسول أيضاً. وفي الجملة لا يهمنا هنا موضوع نسب "أنمار" أكان في اليمن أم كان في نزار، و إنما الذي يهمنا أن الأحلاف تؤثر تأثيراً كبيراً في نشوء النسب، فلولا دخول أنمار في اليمن ونزولها بين قبائل يمانية، لما دخل نسبها في اليمن. ولولا دخول أنمار في قبائل عدنانية وتحالفها معها لما عدها النسابون من نزار، ولما عدّوا انماراً ابناً من أبناء نزار الأربعة. فاختلاط "انمار" في اليمن وفي نزار وترددها بين الجماعتين هو الذي أوقع النسابين في مشكلة نسبها.

وطالما دفعت الحروب القبائل المغلوبة على الخضوع لسيادة القبائل الغالبة وقد تحالف معها وتدخل في جوارها،وإذا دام ذلك طويلاً، فقد يتحول الحلف و الجوار إلى نسب. ثم إن تقاتل القبائل بعضها مع بعض يؤدى أحياناً إلى ارتحال بعض هذه القبائل المتقاتلة إلى مواطن جديدة فتنزل بين قبائل أخرى، وتعقد معها حلفاً وتجاورها ومتى طال ذلك صار نسباً، كالذي ذكره أهل الأنساب من نزوح قبائل عدنانية إلى اليمن بسبب تقاتلها بعضها مع بعض، مما أدى إلى دخول نسبها في اليمن، و كالذي ذكروه أيضاً من نزوح قبائل يمانية نحو الشمال واختلاطها بقبائل عدنانية مما أدى إلى دخول نسبها في نسب تلك القبائل.

ونجد في كتب الأنساب والأخبار أمثلة كثيرة على اختلاط أنساب قبائل معروفة في عدنان وفي قحطان، كما رأيت فعل السياسة في تكييف النسب في صدر الإسلام وفي عهد

الدولة الأموية وتنظيمه، كما رأيت كيف أن بعض النسابين ينسبون قبيلة إلى أب قحطاني على حين ينسبها بعض آخر إلى أب عدناني، وكيف أن نسابي القبيلة كانوا يرون رأيا آخرا. وقد رأيت كيف أن بعضا ممن أرجع نسب ثقيف إلى "ثمود" بغضاً للحجاج الذي كان من ثقيف، ورأيت أيضاً اختلاف النسابين فيما بينهم في رسم شجرات الأنساب.

لقد وقع هذا الاختلاف لعوامل عديدة سياسية وجغرافية وعاطفية، لا يدخل البحث فيها في هذا المكان.

هذا وقد أرجع "ابن حزم" جميع قبائل العرب إلى أب واحد، سوى ثلاث قبائل، هي: تنوخ، والعتق، وغسان.، فإن كل قبيلة منها مجتمعة من عدة بطون، وقد نص غيره من أهل النسب على أن تنوخاً اسم لعشر قبائل، اجتمعوا وأقاموا بالبحرين، فسموا تنوخاً. وذكر بعض آخر أن غسان عدة بطون من الأزد، نزلت على ماء يسمى غسان، فسميت به. فترى من هنا إن تنوخاً والأزد حلف في الأصل، وقد صار مع ذلك سبباً عند كثير من أهل الأخبار.

وبين أجداد القبائل والأسر الذين يذكرهم أهل الأنساب، أجداد كانوا أجداداً حقاً، عاشوا وماتوا. وقد برزوا بغزواتهم وبقوة شخصياتهم، وكونوا لقبائلهم وللقبائل المتحالفة معها أو التابعة لها مكانة بارزة، جعلها تفتخر بانتسابها إليهم، حتى خلد ذلك الفخر على هيأة نسب. ونجد في كتب الأنساب أمثلة عديدة لهؤلاء.

وقد رتب علماء الأنساب قبائل العرب على مراتب كما سبقت الإشارة، هي: شعب، ثم قبيلة، ثم عمارة، ثم بطن، ثم فخذ، ثم فصيلة. فالشعب النسب الأبعد مثل عدنان وقحطان، والقبيلة مثل ربيعة ومضر، والعمارة مثل قريش وكنانة، والبطن مثل بني عبد مناف وبني مخزوم، ومثل بني هاشم وبني أمية، والفصيلة مثل بني أبي طالب وبني العباس. وجعل "ابن الكلبي" مرتبة بين الفخذ والفصيلة، هي مرتبة العشيرة، وهي رهط الرجل. وبني "النويري" طبقات القبائل على عشر طبقات هي: الجِذْم، و الجماهير، والشعوب، والقبائل، والعمائر، والبطون، و الأفخاذ، والعشائر، والفصائل والأرهاط. ورتب "نشوان ابن سعيد الحميري" القبائل على هذا النحو: الشعب، ثم القبيلة، ثم العمارة، ثم البطن، ثم الفخذ، ثم الجيل، ثم الفصيلة. وجعل مضر مثال الشعب، وكنانة مثال القبيلة، وقريشاً مثال العمارة، وفهراً مثال البطن، و قصياً مثال الفخذ، وهاشما للجيل، وآل العباس للفصيلة.

وأكثر علماء النسب يقدمون الشعب على القبيلة، والظاهر أن هذه الفكرة كانت قد اختمرت في رؤوس الجاهليين الذين عاشوا في الجاهلية القريبة من الإسلام حيث ظهرت عندهم الفكرة القومية بمعنى واسع، وحيث نجد عندهم ظهور الكلمات التي تشير إلى هذا المعنى، مثل اطلاقهم العرب على العرب جميعاً اصطلاحاً، وحيث أخذ الحس القومي يظهر بين القبائل بوجوب التكتل لمكافحة الغرباء؟ كالذي حدث في معارك اليمن مع الحبش، وفي معارك عرب العراق مع الفرس. وقد قدّم القرآن الكريم الشعوب على

القبائل (وجعلناكم شعوباً وقبائل، لِتَعارفوا)، فالشعوب هنا فوق القبائل و تعبر عن هذا المعنى الواسع الذي أتحدث عنه.

وزاد بعض العلماء الجذم، بأن وضعوها قبل الشعب، ووضعوا الفصيلة بعد العشيرة، ومنهم من زاد بعد العشيرة الأسرة، ثم العترة. ورتبها آخرون على هذه الصورة: الجذم، ثم الجمهور، ثم الشعب، ثم القبيلة، ثم العمارة، ثم ا لبطن، ثم الفخذ، ثم العشيرة، ثم الفصيلة، ثم الرهط، ثم الأسرة، ثم العترة، ثم الذرية. وزاد غيرهم في أثنائها ثلاثة، هي: البيت، والحي، و الجماع.

والاختلاف الذي نراه من علماء النسب، هو في الترتيب، أي من حيث التقديم والتأخر، وفي إضافة بعض المصطلحات أو في نقصها. أما من حيث العموم، فإننا نجدهم يتفقون في الغالب،ولا يختلفون أبداً في أن القبائل والأنساب كانت على منازل ودرجات. ولا بد أن تكون أكثر هذه المصطلحات مصطلحات أهل الجاهلية القريبين من الإسلام. أما بالنسبة إلى الجاهليين البعيدين عنه، فلن يكون حكمنا عليهم علمياً إلا إذا أخذنا مصطلحاتهم من كتاباتهم. ولم نتمكن ويا للأسف من الحصول على مادة منها تفيدنا في هذا الباب. فليس لنا إلا الصبر والانتظار.

والقبيلة: الجماعة تنتمي إلى نسب واحد، ويرجع ذلك النسب إلى جدّ أعلى، أو إلى جدّة وهو في الأقل. ولا تزال اللفظة حية مستعملة يستعملها العرب في كل مكان في المعنى الاصطلاحي المستعمل عند النسابين.

والقبيلة هي المجتمع الأكبر بالنسبة إلى أهل البادية، فليس فوقها مجتمع عندهم. وهي في معنى "شعب" عندنا وفي مصطلحنا الحديث. و تتفرع من القبيلة فروع وأغصان، هي دون القبيلة، لأنها في منزلة الفروع من الشجرة. ثم اختلفوا في عدد الفروع المتفرعة من القبيلة، فجعل بعضهم بعد القبيلة العمارة ثم البطن، ثم الفخذ ثم الفصيلة، وجعل بعض آخر ما دون القبيلة: العَمارة ثم البطن، ثم الفخذ، ثم الفصيلة، وزاد بعض آخر قبل الشعب الجِذم، وبعد الفصيلة العشيرة. ومنهم من زاد بعد العشيرة الأسرة، ثم العترة.

ويدل اختلاف النسابين في ضبط أسماء ما فوق القبيلة أو ما تحتها،واضطرابهم في الترتيب على أن هذا الترتيب لم يكن ترتيباً جاهلياً أجمع الجاهليون عليه، وإلا لما تباينوا هذا التباين فيه، ولما اختلفوا هذا الاختلاف في سرده، إنما هو ترتيب اجتهادي أخذه العلماء من أفواه الرواة ومن الأوضاع القبلية التي كانت سائدة في أيامهم ومن اجتهادهم أنفسهم، فرتبوها على وفق ذلك الاجتهاد.

وأكثر هذه المصطلحات لم ترد لا في الكتابات الجاهلية ولا في الشعر المنسوب إلى الجاهلين، لذلك يصعب على الإنسان أن يبدي رأياً علمياً مقبولاً فيها، وأعتقد أن خير ما

يمكن فعله في هذا الباب هو استنطاق الكتابات الجاهلية وتفليتها وتفلية الشعر الجاهلي للبحث عما فيه من مصطلحات تتعلق بالنظم القبلية وعندئذ نتمكن من تكوين رأي قريب من الصواب والصحة في هذا الموضوع.

ومن أجل ذلك قال "روبرتسن سمث" إن البطن والحي هما أساس أقدم أشكال المجتمعات السياسية عند الساميين.

كما استدل من أسماء بعض القبائل التي تحمل أسماء بعض الحيوانات، مثل: بني أسد، وبني كلب، وبني بدن، وبني ثعلب، وبني ثور، وبني بكر، وبني ضب، وبني غراب، وبني فهد، وما شاكل ذلك من أسماء جماعة من القبائل، وبعضها عمائر، وبعضها بطون أو فصائل على وجود "الطوطمية" عند العرب، وعلى أن هذه الأسماء هي من ذكريات "الطوطمية" القديمة.

وقد تأثر بنظريته هذه جماعة من العلماء، وعدّ بعض العلماء نظرية "الطوطمية" مفتاحاً يوصل إلى حل كثير من المسائل الغامضة من تأريخ البشرية القديم.

ولما كانت هذه النزعة الفردية هي هدف سياسة سادت القبائل، أصبحت من أهم العوائق في تكوين الحكومات المدنية الكبيرة في جزيرة العرب، ومن أبرز مظاهر الحياة السياسية قبل الإسلام.

وينطبق ما قلته عن تنظيم القبيلة وبناء الأنساب عليه على أهل الحضر أيضاً. فالحضر، ولا سيما حضر الحجاز، وإن استقروا وأقاموا غير أنهم لم يتمكنوا من ترك النظم البدوية الاجتماعية القائمة على مراعاة قواعد النسب وفقاً للتقسيمات المذكورة. وهي تقسيمات أوجدتها طبيعة الحياة في البادية، تلك الحياة الشحيحة التي لا تحمل طاقاتها تقديم ما يحتاج إليه مجتمع كبير مستقر من مأكل وماء، ولذلك اضطرت المجتمعات الكبرى، وهي القبائل،على التشتت والانقسام والانتشار كتلا تختلف درجات حجمها حسب طبيعة الأرض التي نزلت بها، من حيث الكرم و البخل، و لما استقر بعض هؤلاء البدو وتحضروا في أماكن ثابتة مثل مكة ويثرب و الطائف، حافظوا على نظمهم الاجتماعية المذكورة الموروثة من حياة البادية، وعاشوا في مدرهم أحياءً وشعاباً عيشة قائمة على أساس الروابط الدموية والنسب، كما سأتحدث عن ذلك في الحياة الاجتماعية.

والنسب عند العرب، هو نسب يقوم إذن على الطبقات المذكورة، كما أن الطبقات المذكورة قائمة على دعوى النسب، فبين النسب وبناء المجتمع، صلة وارتباط، ولا يمكن فك أحدهما عن الآخر، ولهذا نجد شجرات الأنساب تتفرع و تورق وتزهر على هذا الأساس.

وأنا لا أستثني المجتمع العربي في الجنوب، الذي تغلب عليه حياة الاستقرار والسكن والاستيطان من هذا التنظيم. فنحن وإن لم نتمكن حتى الآن من الحصول على كتابات

كافية تقدم لنا صورة واضحة عن الأنساب وعن تنظيمات المجتمع عند المعينيين والسبئيين وغيرهم من العرب الجنوبيين، غير أن في بعض الكتابات التي وصلت إلينا إشارات تفيد وجود هذا التنظيم عند العرب الجنوبيين.

والعرب الجنوبيون وإن غلبت عليهم حياة السكن والاستقرار، غير أن زمانهم لم يتمكن من تحرير نفسه من قيود الحياة القبلية، ولم يكن من الممكن يالنسبة لهم الابتعاد عن الاحتماء بالعصبية القبلية وبعرف القبيلة، فالطبيعة إذ ذاك طبيعة حتمت على الناس التمسك بتلك النظم لحماية أنفسهم وللدفاع عن أموالهم حيث لا حق يحمي المرء غير حق العصبية القائم على أساس النسب والدم.

ويعبر عن القبيلة بلفظة "شعيم" و "شعبن" في العربيات الجنوبية. أي "قبيلةٌ" و "القبيلة"**1** أما لفظة "القبيلة" فلم أعثر على وجود لها في كتابات المسند. فلعلها من الألفاظ الخاصة بأهل الحجاز ونجد. وأما ما دون "الشعب"، أي القبيلة في اصطلاحنا، فلم أقف على مسمياتها بالنحو الذي يذكره أهل الأنساب. وإنما تجد العرب الجنوبيين يقسمون القبيلة إلى أقسام، مثل "ربعن" أي "ربع" و "ثلثن" أي ثلث. ويريدون بذلك، ربع قبيلة وثلث قبيلة. وربما كانوا يقسمونها إلى أقسام أخرى، لم تصل أسماؤها الينا، ولعل الأيام ستزودنا بما كان العرب الجنوبيون يستعملونه من مصطلحات في النسب عندهم، وذلك قبل الإسلام بزمان طويل، وبالمصطلحات التي كانوا يطلقونها على فروع القبيلة في تلك الأوقات.

وبينما نجد أهل الأنساب ينسبون أهل الوبر وأهل المدر إلى أجداد، عاشوا وماتوا، نجد المعينيين مثلاً، يستعملون جملة: "أولدهو ود"، أي "أولاد ودّ"، و "ودّ" هو إلَه شعب معين الأكبر، كما نجد السبئيين يطلقون على أنفسهم "ولد المقه"، اي أولاد الإله "المقه"، والمقه هو إله سبأ الأول. ونجد القتبانيين يدعون أنفسهم "ولد عم"، أي أولاد عم، ومعنى هذا، أن كل قبيلة من القبائل المذكورة، نسبت نفسها إلى إلهها الخاص بها واحتمت به، تماماً كما فعل العبرانيون وغيرهم، إذ نسبوا أنفسهم ، إلى إلَه قومي اعتبروه إلههم الخاص بهم، المدافع عنهم، والذي يرزقهم و ينفعهم، وقد يعدّ هذا نسباً. أما نسب على النحو الذي يقصده و يريده أهل الأخبار، أي جد عاش ومات وله أولاد وحفدة، فهذا لم يصل خبره إلينا في كتابات المسند، بل في كل ما وصل إلينا من كتابات جاهلية حتى الآن.

✓"الطوطمية" ودور الأمومة عند العرب :

وقد لاحظ العلماء المحدثون أن بين أسماء القبائل، أسماء هي أسماء حيوان أو نبات أو جماد أو أجرام فلكية. كما لاحظوا أن بين المصطلحات الواردة في النسب مصطلحات لها علاقة بالجسم وبالدم، و قد وجدوا أن بين هذه التسميات والمصطلحات وبين البحوث التي قاموا بها في موضوع دراسة المجتمعات البدائية صلة وعلاقة، وأن للتسميات المذكورة صلة وثيقة ب "الطوطمية"، كما أن للمصطلحات صلة بما يسمى ب "دور الأمومة" أو "زواج الأمومة" عند علماء الاجتماع.

والطوطمية نظرية وضعها "ماك لينان" "م كلينان" المتوفى سنة 1881 م، خلاصتها:

1) إن الطوطمية دور مرّ على القبائل البدائية، وهي لا تزال بين أكثر الشعوب إغراقاً في البدائية والعزلة.

2) إن قوامها اتخاذ القبيلة حيوا ناً أو نبا تاً، كوكباً أو نجماً أو شيئاً آخر من الكائنات المحسوسة أباً لها تعتقد أنها متسلسلة منه وتسمى باسمه.

3) تعتقد تلك القبائل أن طوطمها يحميها ويدافع عنها، أو هو على الأقل لا يؤذيها وإن كان الأذى طبعه.

4) لذلك تقدس القبيلة طوطمها وتتقرب إليه وقد تتعبد له.

5) الزواج ممنوع بين أهل الطوطم الواحد، ويذهبون إلى الزواج من قبائل غريبة عن قبيلة الطوطم المذكور، وهو ما يعبر عنه ب "Exogamy" في اللغة الإنكليزية، إذ يعتقدون أن التزاوج من بين أفراد القبيلة الواحدة ذو ضرر بالغ، ومهلك للقبيلة، لذلك يتزوج رجال القبيلة نساءً من قبيلة أخرى غريبة، لا ترتبط بطوطم هذه القبيلة، والمخالف لهذه القاعدة، أي الذي يتزوج امرأة من قبيلته يعرض نفسه للعقوبات قد تصل إلى الحكم عليه بالموت.

6) الأبوة غير معروفة عند أهل الطوطم، و مرجع النسب عندهم إلى الأم.

7) لا عبرة عندهم إلى العائلة، والقرابة هي قرابة الطوطم، فأهل الطوطم الواحد إخوة و أخوات يجمعهم دم واحد[1].

والطوطمية"Totemism" ، لفظة أخذت من كلمة"Ototemom" ، وهي من كلمات قبيلة "Ojibwa" من قبائل هنود أمريكا، اشتق منها "لانك" "J. Lang" "كلمة "توتم " "Totem"، ومنها أخذ اصطلاح "طوطمية" "توتميسم" "Totemism" "الذي يعني اعتقاد جماعة بوجود صلة لهم بحيوان أو حيوانات تكون في نظرها مقدسة، ولذلك لا يجوز صيدها أو ذبحها أو قتلها أو أكلها أو إلحاق أذى بها، وتشمل الطوطمية النباتات كذلك، فلا يجوز لأفراد الجماعة التي تقدسها قطعها أو إلحاق الأذى بها، وقد يتوسع بها فتشمل بعض مظاهر الطبيعة مثل المطر والنجوم والكواكب.

---

[1] جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج1 ط2، بغداد، ص518.

وهم يؤمنون بأن "الطوطم" لا يؤذي أتباعه، فلا يخافون منه، حتى وإن كان من الحيوانات المؤذية، التي تلحق الأذى بالإنسان، كالحية أو العقرب أو الذئب. وهم يعتقدون أيضاً أنه يدافع عنهم، وأنه ينذر أتباعه إن أحس بقرب وقوع خطر على أتباعه، وذلك بعلامات وإشارات على نحو ما يقال له الزجر والطيرة والفأل.

وهم يتقربون إلى طوطمهم، محاولة منهم في كسب رضاه، فيقلدونه في شكله ومظهره، وقد يلبسون جلده أو جزءاً من جلده، أو يعلقون جزءاً منه في أعناقهم أو أذرعهم على نحو من التعاويذ، لأنه يحميهم بذلك ويمنع عنهم كل سوء، كما يحتفلون وبالمناسبات مثل مناسبات الولادة أو الزواج أو الوفاة بنقش رمز الطوطم على ظهر المولود، أو دهن الجسم بدهن مقدس من دهان ذلك الطوطم إلى آخر ما هنالك من أعراف وتقاليد.

ويؤلف المعتقدون بالطوطم جماعة تشعر بوجود روابط دموية بين أفرادها، أي بوجود صلة رحم بينها، والرابط بينها هو ذلك الطوطم الذي تنتمي الجماعة إليه وتلتف حوله، ليكون حاميها والمدافع عنها في الملمات. ومن أصحاب هذا المذهب من لا يذكر اسم الطوطم، بل يُكنى عنه، ويجوز أن يكون ذلك خوفاً منه، أو احتراماً له، وقد يرسم له شعار تحمله الجماعة وأفرادها.

وللعلماء نظريات وآراء في الطوطمية، وهي منصبّة على دراسة الناحية الاجتماعية منها، من حيث كون " الطوطمية " نظاما اجتماعياً يقوم على أساس مجتمع صغير مبني على

العشيرة أو القبيلة، أما الدراسات الدينية للطوطمية، وأكثر هذه الدراسات عن قبائل هنود أمريكا الشمالية و عن قبائل أستراليا ثم أفريقيا. أما أثر الطوطمية عند الشعوب القديمة مثل اليونان والشعوب السامية فإن بحوث العلماء في المراحل الأولى ، وهي مستمدة بالطبع من الإشارات الواردة في الكتابات أو المؤلفات أو من دراسات الأسماء.

ومن أشهر أصحاب النظريات في موضوع الطوطمية "تيلر "Sir E. B. Tylor" "و "سير جيمس فريزر"Sir J. G. Frazer" "، و هذا الأخير يرفض نظرية الذاهبين إلى أن الطوطمية في شكلها الأول هي ديانة؛ لأن الطوطم لا يعبد كما يقول على صورة صنم.

ومن أسماء الحيوانات التي تسمت بها البطون والعشائر: كلب، وذئب، ودبّ، وسلحفاة، ونسر، وثعلب، و هرّ، وبطة، وثور، وغير ذلك من أسماء حيوانات تختلف بحسب اختلاف المحيط الذي تكون فيه عبدة الطواطم، يضاف إلى ذلك أسماء أشجار ونباتات أخرى وطائفة من أسماء الأسماك، وقد ذكر "بيتر جونس "Peter Jones أربعين بطناً من بطون قبيلة ال "Ajibwa" لها أسماء حيوانات.

وقد لاحظ "روبرتسن سمث "Robertson Smith" "أن في أسماء القبائل عند العرب أسماء كثيرة هي أسماء حيوان أو نبات أو جماد. فاتخذ من هذه الأسماء دليلاً على وجود "الطوطمية" عند العرب، و على أثرها في الجاهليين[1].

---

[1] جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج1 ط2، بغداد، ص521.

فأسماء مثل: بني كلب، وبني كليب، والنمر، والذئب، والفهد، والضبع والدب، والوبرة، والسيد، والسرحان، و بكر، وبني بدن، وبني أسد، وبني يهثة، وبني ثور، وبني جحش، وبني ضبّة ، وبني جعدة، وبني الأرقم، وبني دُئل، وبني يربوع، و قريش، وعنزة، وبن حنش، و بن غراب، وبني فهد، وبني عقاب، وبرني أوس، وبني حنظلة،، وبني عقرب، و بني غنم، وبني عفرس، وبني كوكب، وبني قنفذ، وبني الثعلب، والسيد، وبي قنفذ، وبني عجل، وبني انعاقه، وبني هوزن، وبني ضب، وبني قراد، وبني جراد، وما شاكل ذلك من أسماء، لا يمكن في نظره إلا أن تكون أثراً من أثار الطوطمية، ودليلاً ثابتاً واضحاً على وجودها عندهم في القديم[1].

وقد لاقى تطبيق روبرتسن سمث نظرية "الطوطمية" على العرب الجاهليين، ترحيباً عند بعض المستشرقين، كما لاقى معارضة من بعضهم، وقد رد عليه "جرجي زيدان" في كتابه "تاريخ التمدن الإسلامي"، وبيّن أسباب اعتراضه على ذلك التطبيق.

---

[1] جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج1 ط2، بغداد، ص521.

✓دور الأمومة :

واتخذ "روبرتسن سمث" من تسمي بعض القبائل بأسماء مؤنثة مثل: "مدركة" "وطابخة" و "خندف" و "ظاعنة" و "قيلة" و "جديلة" و "مُرّة" و "عطيّة"، وأمثالها، دليلاً على وجود ما يسمى ب "دور الأمومة" عند العرب، وهو دور لم يكن للنساء فيه أزواج معيّنون، لأن الزواج لم يكن فيه بالمعنى المفهوم من الزوجية عندنا، بل كان الرجل يجتمع بالمرأة ثم يتركها ليجتمع بامرأة أخرى، و هكذا تكون المرأة قد اتصلت بجملة رجال، كما يكون الرجل قد اتصل بجملة نساء، و إذ كانت المرأة لم تكن تعرف زوجها الذي نَجَلَ مولودها، ولا يعرف المولود والده نُسب إلى أمه و عرف بها، وبهذا التفسير، فسر "روبرتسن سمث" و من ذهب مذهبه من علماء علم الاجتماع، وجود الأسماء المؤنثة عند العرب وعند العبرانيين وعند بقية الساميين.

واتخذ "روبرتسن سمث" من وجود بعض الكلمات في تسلسل أنساب القبائل مثل: البطن و الفخذ والصلب والظهر والدم و "رحم"، دليلاً آخر على وجود "دور الأمومة" عند العرب، لأن هذه الألفاظ صلة بالجسم، ولهذا كان إطلاقها عند قدماء العرب - على حد قوله - علاقة بجسم الأم، ولا سيما أنهم استعملوا لفظة "الحي" كذلك، ولهذه الفظة علاقة بالحياة وبالدم، و إطلاق الألفاظ في نظره ورأيه على معان اجتماعية، دليل على الصلة التي كانت للأم في المجتمع لذلك العهد.

وقد بحث "روبرتسن سمث" بحثاً مفصلاً في الحي، إذ هو في نظره وحدة سياسية واجتماعية قائمة بذاتها. ويطلق على "الحي" لفظة "قوم" و"أهل". وينظر أبناء الحي الواحد بعضهم إلى بعض نظرة قرابة كأنهم من نسل واحد يربط بينهم دم واحد، وقد استدل "روبرتسن سمث" من معنى "الحي" على وجود معنى الحياة في الكلمة في الأصل، كما هو الحال في اللغات السامية، ورأى لذلك أنها تمثل رابطة قرابة وصلة دم عند سائر العرب السامية. ويكون أعضاء الحي الأحرار "صرحاء"، وفي العبرانية "أزراح" أما الذي ينتمون إليه بالولاء، فهم "الموالي" يستجيرون به أو بالقبائل أو الأفراد، فيلقون حماية من يستجيرون بهم، ويكون "الجار" في رعاية مجيره.

و"البطن" في نظر "روبرتسن سمث" هو أقدم أوضاع المجتمع السامي القديم، ويقوم على أساس الاعتقاد بوجود القرابة والروابط الدموية، ويرى أن مفهومه عند قدماء الساميين كان يختلف اختلافاً بيّناً عنه عند العرب المتأخرين، أو عند العبرانيين" أو غيرهم، وقد فهم من اللفظة معنى المجموع الأكبر عند العرب، أي معنى "شعب" أو "جذم" أو قبلية، ورأى أن هذا المعنى هو المعنى القديم للكلمة عند العرب، أما المعاني التي تذكرها علماء اللغة والأدب والأخبار، فهي في نظره معان متأخرة وضعت في الجاهلية القريبة من الإسلام، ومن جملة هذه المعاني اختصاصها بالأماكن التي تقيم فيها القبيلة أو العشرة، ونتألف من جملة عدد من الدور.

وقد استدل "روبرتسن سمث" من لفظة "البطن" و "الفخذ" وأمثالهما على مرور العرب في دور الأمومة، وعلى أن القبائل كانت قد أخذت أنسابها القديمة وأسماءها من الأمومة ومن "الطومية"، ورأى أن كلمة "البطن" في الأصل كانت تعني معنى آخر غير الذي يذهب إليه علماء الأنساب، ودليله على ذلك استعمال "رحم".[1]"

وقد أشار "نولدكه Noeldeke "إلى أهمية تأنيث أسماء القبائل، فاتخذ القائلون بنظرية "الأمومة" من هذه الأسماء دليلاً على أهمية هذا العهد في التأريخ الجاهلي القديم.

وقد وافق "ويلكن "G.A. Wilken" "على بعض أراء "روبرتسن سمث"، و خالفه في بعض الآراء[2].

ومن واضعي نظرية الأمومة العالم الألماني السويسري "باخ أوفن "Johann Jakob " 1887 -1815" "Bachofen"م"، و هو من علماء القانون ومن مؤسسي "علم القانون المقارن"، وكان معروفاً بأبحاثه عن الأشياء الخفية التي تؤثر في حياة الإنسان، وقد ذهب إلى أن تاريخ العالم صراع بين الروح والمادة، بين الذكر والأنثى، وأن الحياة الأرضية مزيج من هذين الكفاحين، وقد لفت نظره إلى الزواج باعتبار أنه ناحية من النواحي القانونية، وتعرض لمباحث الزواج عند الإنسان القديم، و لفوضوية الزواج، حيث كان الرجل يتناول المرأة بغير عقد، كما تفعل الحيوانات، ولاشتراك عدد من الرجال في امرأة واحدة،

---

[1] جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج1 ط2، بغداد، ص110.

[2] جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج1 ط2، بغداد، ص110.

"Hetarische Gynaikokratie"، فلا يعرف فيه النسل من أي أب هو، و إذا بقي في رعاية أ مه، فنسب إليها: وهو زواج مرَّ على جميع الشعوب، كما بحث عن الأديان البدائية وعلاقتها بأمثال هذا الزواج[1].

ويجب أن نضيف إلى تلك الفوضوية فوضوية أخرى، هي فوضوية الغزو وتقاتل الإنسان مع الإنسان و إباحة المدن والقرى للجيوش الغازية المنتصرة، يعيثون فيها وفي أهلها فساداً، يؤدي إلى انتهاك الحرمات وا ستباحة الأعراض وتوالد أطفال ليس في مقدور أمهاتهم معرفة آبائهم، فلا يبقى لهم من مجال إلا الانتساب إلى الأمهات.

ودور الأمومة عند أصحاب هذه النظرية، هو أقدم أنواع الزواج، و أما "الأبوة" أي دور الزواج الذي عرف النسل فيه آباءهم فهو عندهم أحدث عهداً من الأمومة، وقد زعموا أن هذين الدورين مرّ ا على البشرية جمعاء، وفيهم العرب. وفي دور الأمومة تكون القرابة فيه لصلة الرحم، أي إلى الأم، فهو الرباط المقدس المتين الذي يربط بين الأفراد ويجمع شملهم، وهو نسبهم الذي إليه ينتمون، في هذا الدور لا يمكن أن يعرف فيه الانتساب إلى الأب، لسبب عادي هو عدم إمكان معرفة الأب فيه، ولهذا كان نسب النسل في " حتماً للأم، و كان نسب الجماعات فيه أيضاً للأم. و من هذه الجماعات القبائل، و هم يرون أن تسمي القبائل بأسماء رجال، بأن تجعلهم أجدادا وآباءً، هي تسميات محدثة ظهرت بعد ظهور دور الأموة، و تطور الزواج من زواج الفوضى أو زواج تعدد الرجال إلى زواج

[1] جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج1 ط2، بغداد، ص110.

حدد فيه على المرأة التزوج برجل واحد ليس غير، يكون فيه بعلها الذي تختص به، ومن هنا اندثرت الأسماء القديمة، أي أسماء الإناث في الغالب، و حلت محلها أسماء الذكور.

هذا، وقد بحث "جرجي زيدان" في نظرية "الأمومة" عند العرب وردّ عليها بتفصيل.

✓أصول التسميات:

و قد أ لف "ا بن در يد ا لأزدي" كتا باً في ا شتقاق الأ سماء عـند العرب، سماه "كتاب الاشتقاق"، تحدث فيه عن أصول الأسماء واشتقاقها، وذلك رداً على من زعم أن العرب تسمي بما لا أصل له في لغتهم، فذكر اشتقاق تلك الأسماء، وقد قال في مقدمته له: "كان الأميون من العرب لهم مذاهب في أسماء أبنائهم وعبيدهم وأتلادهم، فاستشنع قوم إما جهلاً وإما تجاهلاً تسميتهم كلباً، وكليباً، وأكلب، وخنزيراً، وقرداً، وما أشبه ذلك مما لم يستقص ذكره، فطعنوا من حيث لا يجب الطعن، وعابوا من حيث لا يستنبط عيب. وكان الذي حدانا على إنشاء هذا الكتاب، أن قوماً ممن يطعن على اللسان العربي وينسب أهله إلى التسمية بما لا أصل له في لغتهم، وإلى ادعاء ما لم يقع عليه اصطلاح من أوليتهم وعدّوا أسماء جهلوا اشتقاقها، ولم ينفذ علمهم في الفحص عنها".. إلى إن قال: "واعلم إن للعرب مذاهب في تسمية أبنائها فمنها ما سموه تفاؤلاَ على أعدائهم نحو: غالب، وغلاب، وظالم، وعارم، ومنازل ومقاتل، ومعارك، وثابت و نحو ذلك، وسموا في مثل هذا الباب مسهراً، ومؤرقاً، ومصبحاً، ومنبهاً، وطارقاً، ومنها ما تفاءلوا به للأبناء نحو: نايل، و وايل،

و ناج، و مدرك، و درّاك، و سالم، و سليم، وما لك، و عامر، و سد، و سيد، وم سعدة، وأسعد، وما أشبه ذلك، ومنها ما سمي بالسباع ترهيباً لأعدائهم نحو: أسد، وليث، وفراس، وذئب، وسيد، وعملس، وضرغام، وما أشبه ذلك، ومنها سمي بما غلظ وخشن من الشجر تفاؤلاً ايضاً، نحو: طلحة، و سمرة، و سلمة، وقتادة، وهرا سة، كل ذ لك شجر له شوك و عضاة، ومنها ما سمي بما غلظ من الأرض، وخشن لمسه وموطئه، مثل: حجر، وحجير، و صخر، وفهر، وجندل، و جرول، وحزن، وحزم. ومنها إن الرجل كان يخرج من منزله وامرأته تمخض فيسمي ابنه بأول ما يلقاه من ذلك، نحو: ثعلب، وثعلبة، وضب، وضبة، و خزز، و ضبيعة، و كلب، و كليب، وحمار، و قرد، و خنزير، و جحش، وكذلك أيضاً يسمى بأول ما يسنح أو يبرح من الطير، نحو: غراب، و صرد، و ما أ شبه ذ لك.. خرج وابل بن قاسط وامرأته تمخض، وهو يريد أن يرى شيئاً يسمي به، فإذا هو ببكر قد عرض له، فرجع وقد ولدت زوجته غلا ماً، فسماه بكراً، ثم خرج خرجة أخرى وهي تمخض، فرأى عنزاً من الظباء، فرجع وقد ولدت غلا ما فسماه، عنزاً.. ثم خرج خرجة أخرى، فإذا هو بشخيص قد ارتفع له ولم يتبينه نظراً، فسماه الشخيص.. ثم خرج خرجة أخرى، وهي تمخض، فغابه أن يرى شيئاً، فسماه تغلب.. خرج تميم بن مرّ وامرأته سلمى بنت كعب تمخض، فإذا هو بواد قد انبثق عليه لم يشع ر به، فقال: الليل والسيل، فرجع وقد ولدت غلاماً، فقال: لأجعلنه لإلهي، فسمّاه زيد مناة، ثم خرج خرجة أخرى، وهي

تمخض، فإذا هو بمكاء يغرد على عوسجة قد يبس نصفها وبقي نصفها، فقال لئن كنت قد أثريتِ وأسريتِ لقد أجحدت وأكديت، فولدت غلاماً فسماه الحرث..."[1].

قيل لأبي الدقيش الاعرابي: "لم تسمون أبناكم بشر الأسماء نحو كلب وذئب، وعبيدكم بأحسنها نحو مرزوق ورباح؟"، فقال: "إنما نسمي أبناءنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا".

وتعرض الجاحظ لهذا الموضوع أيضاً، فقال: "والعرب إنما كانت تسمي بكلب وحمار وحجر وجعل وحنظلة وقرد على التفاؤل بذلك. وكان الرجل إذا ولد له ذكر، خرج يتعرض لزجر الطير والفأل، فإن سمع إنساناً يقول حجر أو رأى حجراً، سمى ابنه به وتفاءل فيه الشدة والصلابة والبقاء والصبر وأنه يحطم ما لقي، وكذلك إذا سمع إنساناً يقول ذئب أو رأى ذئباً تأول فيه الفطنة والمكر والكسب، وإن كان حماراً تأول فيه طول العمر والوقاحة والقوة والجلد، وان كان كلباً تأول فيه الحراسة واليقظة وبعد الصوت والكسب". ويظهر مما تقدم أن موضوع التسميات عند العرب كان من الموضوعات التي لفتت إليها الأنظار، لما في كثير منها من غرابة وخروج على المألوف، فانبرى بعض العلماء في شرح الأسباب التي أدت بالعرب إلى اتخاذ تلك التسميات، وإلى ذكر العلل التي دفعتهم عليها كالذي نراه في بحث "ابن دريد" في كتابه "الاشتقاق"، حيث ذكر في مقدمته كل الأسباب التي رآها وتوصل إليها في بحثه عن هذا الموضوع، الذي أثار جانباً منه "رويرتسن سمث" وغيره من المستشرقين.

---

[1] جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج1 ط2، بغداد، ص111.

كما سموا بعبد العزى، و عبد ود وعبد مناة وعبد اللات و عبد قسي و نحو ذلك، مما فيه إضافة العبودية لأحد الأصنام.

والمتعارف عليه في الإسلام، هو إرجاع النسب إلى الأب، أما الانتساب إلى الأم، فإنه قليل الوقوع، ولهذا يعد الرجل عربياً إذا كان والده عربياً، لا يؤثر فيه نسب أمه إن كانت أعجمية، أما قبل الإسلام، فإن النسب وإن كان تابعاً لنسب الأب، إلا أنه قد يلاحق الولد بالأم، وبالرغم من هذا العرف، فإن العرب في الماضي وفي الحاضر يقيمون وزناً كبيراً لدم الأمهات، بل قد تزيد أهميته عندهم على أهمية دم الأب، والمثل العراقي العامي "ثلثين الولد على الخال"، خير تعبير عن وجهة نظرهم تلك، فإنه يمثل نزعة عرق الخال، وهي من النزعات التي أقام لها الجاهليون وزناً كبيراً عندهم.

أما وجهة نظر العلم الحديث، فإن لدم الأبوين أثراً متساويا في المولود، وهذا فإن موضوع النسب إلى الأب أو الأم، موضوع لا يعالج عنده بالعرف والعادة، بل يعالج وفق قواعد العلم المقررة لديه، وبناءً على ذلك يجب أن نقيم وزناً لموضوع التزاوج المختلط بين العرب والغرباء، وقد كان معروفاً وشائعاً في الجاهلية أيضاً، إذ تزوجوا من الرقيق، ولاسيما الرقيق الأبيض ونسلوا منه، كما سكن في جزيرة العرب آلاف من الغرباء قبل الإسلام واندمجوا في أهلها، وتركوا أثراً في دماء أهلها، يختلف باختلاف مقدار الاختلاط، ويتبين ذلك وضوحا في سحن سكان السواحل، لأنهم أكثر عرضة للاختلاط من أبناء البواطن والنجاد.

و لا تختلف أ سماء القبا ئل العربية في طبيعتها عن طبيعة أ سماء القبا ئل عند الشعوب الأخرى، ولا سيما قبائل الشعوب المسماة: الشعوب السامية. فهي أسماء آباء وأجداد ترد غالبا في شكل أ سماء ذكور، وترد في الأ قل في صورة أ سماء نساء، وتعدّ عند ئذ أ سماء أمهات، أي أمهات قبائل، وهي كما قلت قبل قليل ليست أ سماء أعيان بالضرورة، فبينها أسماء مواضع نسب سكانها إليها، فصارت بمرور الزمن جداً، وأباً، أو أماً. وبينها أسماء آلهة و اصنام، تعلق المؤمنون بها حتى نسبوا إليها، وبينها أسماء طواطم. ونجد بن أسماء القبائل العربية أسماء ترد عند العبرانيين وعند غيرهم من الشعوب السامية أعلاماً لقبائل كذلك، و قد يكون من المفيد جداً درا سة هذه الأ سماء ومقابلتها بعضها ببعض، ودرا سة أ سماء القبا ئل العربية درا سة مستفيضة لمعر فة أ صولها وتطور ها ومراجعة الموارد الأعجمية والكتابات الجاهلية للعثور على تلك الأسماء فيها وتعيين زمن ظهور الاسم فيها لأول مرة[1].

[1] جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج1 ط2، بغداد، ص111.

موجز عن تاريخ العرب و مكة:

بعد ما تقدم شرحه نقول أنه كانت أصل قبائل العرب في اليمن حتى هدم سد مأرب الذي كان يحجز عنهم الماء، فهاجرت قبائل العرب أرض اليمن فكل قبيلة منهم ذهبت إلى مكان كما قال الله تبارك وتعالى فيهم: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾[1]، وليس جميع سبأ خرجوا من اليمن لما أصيبوا بسيل العرم بل أقام أكثرهم بها وذهب أهل مأرب الذين كان لهم السد فتفرقوا في البلاد فذهبت على سبيل المثال ثقيف إلى الطائف ولخم وجذام إلى الشرق والشمال وبنو طيء بين الجبلين ولجأت سلمى وكندة إلى البحرين ثم إلى حضرموت وقضاعة إلى شمال العراق والأوس والخزرج إلى يثرب.

وكانت هناك قبيلة جرهم تبحث عن مكان فيه ماء تسكن حوله وكانت تسير بجانب مكة في هذا الوقت كان سيدنا إبراهيم قد أتى بزوجته هاجر وابنها إسماعيل إلى مكة الصحراء وتركهما في أرض صحراء جرداء فتبعته هاجر عليها السلام وهي تقول: أين تتركنا في هذه الصحراء لا طعام ولا ماء؟ فلم يرد عليها، إلى أن قالت: آللّٰه أمرك بهذا؟، قال: نعم فقالت: إذن لن يضيعنا، ولكن بدأ ابنها الرضيع في البكاء حتى شفقت عليه أمه فذهبت

([1]) (سبأ: 15، 16).

تسعى بين الصفا والمروة لتبحث له عن شيء فلم تجد حتى إذا رجعت كان جبريل عليه السلام قد ضرب بجناحه الشريف في الأرض فانفجرت زمزم بإذن من يقول للشيء كن فيكون فذهبت هاجر إلى الماء وهي تقول زم زم لتجمع الماء.

عن أبي ابن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله: ((إن جبريل لما ركض زمزم بعقبه جعلت أم إسماعيل تجمع البطحاء فقال النبي: رحم الله هاجر أم إسماعيل لو تركتها لكانت ماء معينا))[1].

فبدأت الطيور تحوم حول زمزم فرأتها جرهم فقالت ما عهدنا أن هناك ماءً، فأرسلت من ينظر الأمر فرجع فقال لهم أن هناك بئراً وليس عنده إلا امرأة وابن لها رضيع، فذهبت جرهم إلى هاجر فاستأذنتها أن تعيشِ حول زمزم في مقابل أن تأخذ العون من جرهم فكانت هذه دعوة إبراهيم ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[2].

فانقسمت العرب في الجزيرة إلى عرب مستأصلين وعرب مستعربين فكان إسماعيل من العرب المستعربين.

(1) (أخرجه أحمد في المسند الأنصار 21163 وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم رجاله ثقات رجال الشيخين غير حجاج بن يوسف الشاعر فمن رجال مسلم).

(2) (إبراهيم: 37).

✓ أقوام العرب:

وأ ما أ قوام العرب فقد قسمها المؤرخون إلى ثلا ثة أقسام، بحسب السلالات التي يخدرون منها:

1- العرب البائدة:- وهم العرب القدامى الذين انقرضوا تما ماً ولم يمكن الحصول على تفا صيل كافية عن تاريخهم، مثل: عاد، وثمود، وطسم، و جديس، وعملاق، وأ ميم، وجرهم، وحضور، ووبار، وعبيل، وجاسم، وحضرموت، وغيرها.

2- العرب العار بة: وهم العرب المنحدرة من صلب يشجب بن يعرب بن قحطان، وتسمى بالعرب .

القحطانية.

3- العرب المستعربة:- وهي العرب المنحدرة من صلب إسماعيل ، وتسمى بالعرب العدنانية[1].

✓ أمر بناء الكعبة:

وجاء أمر من الله تعالى ببناء الكعبة، فأخذ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ببدء البناء وكانت الكعبة بنيت قبل ذلك، بناها آدم ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾[2]، فأخذ إبراهيم وإسماعيل يرفعان القواعد من البيت، قال الله تعالى:

([1]) (الرحيق المختوم ص22).
([2]) (آل عمران: 96).

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[1]، وكان إبراهيم عليه السلام يقف بعيداً عن الكعبة ليتأمل استواء البناء فكان هذا مقام إبراهيم. يقول عز من قائل ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[2].

وكان نبي الله ابراهيم يبحث عن حجر ليبدأ من عنده البناء فبعث ابنه إسماعيل يبحث عن حجر فلم يجد حجراً مناسباً فلما عاد إلى أبيه وجده قد وضع الحجر الأسود فقال: يا أبت من أين لك هذا؟ قال: هو من عند الله.

وفي الحديث عن أنس قال، قال رسول الله: ((الحجر الأسود من الجنة)) [3].

✓ الأذان بالحج:

ثم جاء الأمر بالآذان بالحج فقال الله تعالى يخاطب نبيه إبراهيم: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[4]. فقال إبراهيم: يا رب أنى يبلغ صوتي؟ فقال الله: يا إبراهيم إنما عليك الآذان و علينا البلاغ.

([1]) (البقرة: 127).

([2]) (البقرة: 125).

([3]) (أخرجه أحمد 13974 وقال شعيب الأرنؤوط إسناده صحيح على شرط الشيخين وأخرجه النسائي فى السنن في كتاب مناسك الحج رقم 2935 وصححه الألباني في صحيح الجامع 3174).

([4]) (الحج:27).

فنادى على جبل أبي قبيس يا أيها الناس إن ربكم بنى بيتا وأوجب عليكم الحج إليه فأجيبوا ربكم والتفت بوجهه يمينا وشمالا وشرقا وغربا فأجابه كل من كتب له أن يحج من أصلاب الرجال وأرحام الأمهات لبيك اللهم لبيك، وجواب الأمر (يأتوك رجالاً) مشاة جمع راجل كقائم وقيام وركبانا (وعلى كل ضامر) أي بعير مهزول، وهو يطلق على الذكر والأنثى (يأتين) أي الضوامر حملا على المعنى (من كل فج عميق) طريد بعيد.

وكانت الجزيرة العربية كلها على التوحيد على ملة إبراهيم حنيفاً.

الدين عند العرب :

إن المعتقد الديني أحد العوامل التي لها أثر في صلات القبائل قبل الإسلام لكن تأثيره لم يصل إلى قوة تأثير العوامل التي سبقته مثل العامل الاقتصادي أو الاجتماعي أو الشعر والشعراء، ويتباين أثر الدين في رسم صلات القبائل مع بعضها البعض من قبيلة لأخرى، وسنرى بأن أكثر القبائل تأثراً بهذا الجانب واستفادة منه هي قبيلة قريش لنزولها في الحرم، فأصبحت لها خصوصية تميزها على غيرها من القبائل، ويرى الدكتور حسين مؤنس[1] بأن عنصر الدين قبل الإسلام كان يؤمِّنْ حياة الاستقرار والانتظام والرخاء، وبصورة عامة فأن أغلب القبائل العربية كانت تعظم البيت الحرام فلا تتقاتل فيه، وتحترم قريش فلا تتعرض لتجارتها لأنهم كانوا يرون بأن قريش جيران بيت الله[2]، ولم تدخر قريش جهداً في استغلال هذا الجانب، فعملت على تحسين صلاتها مع القبائل العربية في الحجاز وغيره من المناطق[3]، وبلغ من أثر الحرم في الصلات بين القبائل بأنه إن كانت هناك قبيلتان متحاربتان ودخلت إحداهما في حدود الحرم أمسكت الأخرى عنها ولم تقاتلها تعظيماً

([1]) تاريخ قريش، ص129.

([2]) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج15، ص 211؛ الاسترابادي، محمد بن الحسن، شرح شافيه ابن حاجب، تح: محمد نور الحسن وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، 1975م، ج4، ص 307؛ الشامي، محمد بن يوسف الصالحي، سبل الهدى في سيرة خير العباد، تح: عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993م، ج1، ص 270.

([3]) الأفغاني، سعيد، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، دار الأفاق العربية، بيروت، 1933م، ص87.

لحرمة بيت الله الحرام[1]، وبلغت حرمة الحرم عند بعض القبائل بأن الرجل يحدث الحدث بقتل الرجل أو لطمه أو ضربه فيربط لحى من شجر الحرم في رقبته فلا يتعرض له أحد[2]، واستغلت قريش مواسم الحج خير استغلال فعملت على تنويع صلاتها مع القبائل سياسياً واقتصادياً وبوسائل مختلفة منها التحالفات لذلك فقد أولت قريش أمور الحج والحجيج عناية خاصة[3]، ونجحت قريش في تكوين شبكة من الصلات الحسنة مع مختلف القبائل، لذلك فقد أصبحت آمنة في تجارتها[4]، وللأشهر الحرم أثر كبير في العلاقات بين القبائل، فأغلب القبائل كانت تضع أسلحتها في هذه الأشهر فلا غارة ولا قتال[5]، بل أن الرجل يلقى قاتل أبيه أو أخيه فلا يعترض سبيله إن كانوا في الأشهر الحرم[6]، وبذلك

---

(1) كانت قريشاً بسوق عكاظ فأتاها خبر قتل أحد أحلافها لرجل من هوازن التي حضرت هذا السوق بكثرة فأنسلت قريش من السوق باتجاه مكة ولما علمت هوازن بذلك لحقت بقريش وحدث قتال بين القبيلتين حتى إذا جن الليل دخلت قريش الحرم فأمسكت هوازن عنهم رعاية لحرمة البيت وقال شاعر هوازن في ذلك،

يا شدة ما شددنا غير كاذبة على (سخينة) (*) لـــــولا الليـــل والـحـــرم(**)

(*) السخينة: طعام حار يتخذ من دقيق وسمن وقيل دقيق وتمر أغلظ من الحساء وأرق من العصيدة وكانت قريش تكثر من أكلها فعيرت بها حتى سموا سخينة. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج12، ص 206؛ الزبيدي، تاج العروس، ج6، ص 248.

(**) ينظر: ابن حبيب، المنمق، ص17؛ الحلبي، علي بن إبراهيم بن أحمد الشافعي، السيرة الحلبية، المسمى إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون، ط3، تح: عبد الله محمد الخليلي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2008م، ج1، ص

(2) ابن الأثير، أبي السعادات المبارك بن محمد، النهاية في غريب الحديث والأثر، تح: أبو عبد الرحمة صلاح بن محمد بن عويصة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م، ج3، ص 22؛ الزبيدي، تاج العروس، ج3، ص 331.

(3) عبد الله، الدعوة الإسلامية وحياة البداوة، ص ص43-44.

(4) الآلوسي، بلوغ الأرب، ج3، ص 380.

(5) الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ج1، ص ص 73، 74؛ الجوهري، مختار الصحاح، ج5، ص 1967.

(6) الطبري، جامع البيان، ج1، ص 697؛ الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن، تح: أحمد حبيب صقر العاملي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1988م، ج2، ص 149.

يمكن اعتبار الأشهر الحرم بمثابة هدنة بين القبائل تستخدمها القبائل لتحسين صلاتها فيما بينها أو لاستعادة عافيتها وتمويل نفسها، ودليل ذلك أن الكثير من الأسواق العامة كانت تقام في الأشهر الحرم[1] ومن الأعمال التي تقام فيها هو التفاوض بين القبائل ودفع ديات الأسرى[2].

وهذا لا يعني أن للبيت الحرام والأشهر الحرم هذا التأثير على جميع القبائل العربية فقد كانت بعضها لا يعتمر ولا يُحَرِّمْ الشهر ولا البلد الحرام منها قبيلتي طيء وخثعم[3][4]، ومن الشواهد على أثر الدين في الصلات بين القبائل هو أنه على الرغم من العداء الذي حدث بين الأوس والخزرج فإنهم كانوا إذا ما ارتبط الأمر بالحج أو بالعمرة فأن من عادتهم إذا خرج أحدهم للحج أو العمرة علق على باب بيته (كرانيف) [5] النخل فعلم الناس أنه ذاهب للبيت فلا يتعرضون له[6]، وانفرد المسعودي بنقل رواية تفيد بأنه قبل الإسلام بمائة وخمسين سنة كان قد حدث قتال في موسم الحج وعند البيت الحرام ونهبت القبائل بعضها بعضاً فسميت تلك الحجة بحجة الغدر[7]، وعقدت بعض القبائل العربية

([1]) اليعقوبي، تاريخ، ج1، ص ص 270 - 271.

([2]) ابن سعد، الطبقات، ج3، ص39؛ اليعقوبي، تاريخ، ج1، ص ص 270 - 271.

([3]) خثعم، بن انمار بن أراش بن عمرو بن الغوث. ينظر: ابن حزم، جمهرة انساب العرب، ص387 .

([4]) الجاحظ، الحيوان، ج7، ص 1483؛ الشهرستاني، الملل والنحل، ص399.

([5]) كرانيف النخل: هي أصل السعفة الغليظ الملتصق بجذع النخلة. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج9، ص297

([6]) ابن حبيب، المنمق، ص269؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج1، ص599.

([7]) للمزيد عن أخبار هذا الحدث والقبائل التي كانت سبباً في ذلك ينظر: التنبيه والإشراف، ص173.

أحلافاً قامت على أساس الدين منها الحمس و(الحلة)[1] وكذلك العباد الذين كانوا بطون شتى من قبائل العرب لجمعتهم النصرانية واجتمعوا في الحيرة فسموا العباد وأصبح ذلك نسباً يرجعون إليه[2]، وفي بعض الأحيان يكون الاختلاف في المعتقد الديني أحد أسباب القتال وإراقة الدماء بين القبائل وإن كان نادر الحصول، ومنه القتال الذي حدث بين (كنانة) [3] وغطفان[4] لأن بني بغيض بن ريث بن غطفان كانوا قد بنو بيتاً في أرضهم وسموه بساً بعد أن أخذوا حجراً من الصفا وآخر من المروة[5] وبنو عليهما ذلك البيت وأخذوا يتعبدونه ويتخذونه حرماً لهم فبلغ ذلك زهير بن جناب الكناني[6] فقال والله لا يكون ذلك أبداً وأنا حي ولا أدع غطفان تتخذ حرماً فجمع قبيلته وغزا غطفان وقاتلهم أشد قتال وظفر بهم وأخذ منهم فارساً وقتله في حرمهم فَعَطّلَهُ وهدم بساً وما حوله[7].

([1]) الحلة: هم تميم وضبه ومزينة والرباب وعكل وثور وقيس عيلان باستثناء ثقيف وعامر بن صعصعة وربيعة بن نزار كلها وقضاعة وغيرها. ينظر: اليعقوبي، تاريخ، ج1، ص257.

([2]) ابن دريد، الاشتقاق، ص11.

([3]) كنانة، هي غير كنانة المذكورة في عمود النسب النبوي، وهي كنانة عذرة من كلب القحطانية. ينظر: القلقشندي، نهاية الأرب، ص254.

([4]) غطفان، هم بنو غطفان بن سعد بن قيس عيلان. ينظر: ابن حزم، جمهرة أنساب العرب ص250 .

([5]) الصفا والمروة: هما موضعان بين بطحاء مكة والمسجد وأما الصفا فكان مرتفع من جبل أبي قبيس بينه وبين المسجد الحرام عرض الوادي الذي هو طريق وسوق ومن وقف على الصفا كان بحذاء الحجر الاسود والمشعر الحرام بين الصفا والمروة. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، 192/5.

([6]) هو زهير بن جناب بن هبل بن عبد الله بن كنانة بن عوف بن عذره الكلبي، أحد من اجتمعت عليه قضاعة في الجاهلية. ينظر: ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ص456-457؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج1، ص ص454-455.

([7]) ابن الكلبي، جمهرة النسب، ص476؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج1، ص ص 454-455.

وبصورة عامة فان القبائل العربية غير الحمس سواء كانوا نصارى أم وثنيين لم يكونوا يقيمون وزناً كبيراً للدين في صلاتهم مع القبائل الأخرى[1]، فالقبائل الوثنية لم تكن صلتها بآلهتها وثيقة جداً[2]، فكان لبني ملكان من كنانة صنم يقال له (سعد)[3] وفيه يقول قائلهم[4]:

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا فشتتنا سعد فلا نحن من سعدِ

وهل سعد إلا صخرة بتنوفة[5] من الأرض لغيٍّ ولا رشدِ

وهذا (امرؤ القيس)[6] عندما قُتِلَ أبوه وأراد الطلب بثأره أتى الصنم (ذو الخلصة)[7] فأستقسم عنده ثلاث مرات كل مرة يخرج الأمر بنهيه عن ذلك فكسر الأعواد التي كانت بيده ورمى بها وجه الصنم وشتمه[8] ثم قال[9]:

لو كنت ياذا الخلصة الموتورا

مثلي وكان شيخك المقبورا

---

(1) حتي، تاريخ العرب، ص53.

(2) بروكلمان، تاريخ الشعوب الاسلامية، ص25.

(3) كانت تعبده بني بكر بن كنانة. ينظر: اليعقوبي، تاريخ، ج1، ص 255.

(4) الشهرستاني، الملل والنحل، ص391.

(5) تنوفة: مكان منخفض من الأرض فيه ماء ونخل. ينظر: الزبيدي، تاج العروس، ج2، ص 387.

(6) امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار. ينظر: السمعاني، الأنساب، ج5، ص248.

(7) ذو الخلصة: صنم كانت تعبده بجيله و خثعم وغيرهما من القبائل. ينظر: اليعقوبي، تاريخ، ج1، ص255.

(8) الحميري، محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، ط2، تح: إحسان عباس، دار السراج، بيروت، 1980م، ص129؛ حتي، تاريخ العرب، ص142.

(9) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج8، ص 57.

لـــم تنـــه عـــن قتل العـداة زورا [1]

أما القبائل النصرانية في شبه الجزيرة العربية فهي لا تختلف كثيراً عن القبائل الوثنية في تأثرها بالدين من حيث تأثره في صلاتها مع القبائل الأخرى فهناك قبائل نصرانية مثل (بني تغلب) [2]، لكنها لم تتقيد بالوازع الديني، فكانت تغزو وتغير على القبائل الأخرى بل ذهبوا لأبعد من ذلك حيث أغاروا على بعضهم البعض فيسلبون ويقتلون[3].

([1]) الزور: هو الميل عن الحق، ينظر: الزبيدي تاج العروس، ج3، ص 245.

([2]) هم ولد عمرو بن غنم بن تغلب وفيهم العدة والعدد. ينظر: ابن حزم، جمهرة انساب العرب، ص304.

([3]) الجاحظ، الحيوان، ج7، ص 1483؛ حتي، تاريخ العرب، ص53.

الجن و الشياطين و الغيلان :

✓ الجن :

الإيمان بوجود الجن مسألة قديمة قدم الثقافة العربية، و لربما كان في نفس قدم الاعتقاد بالآلهة، و تكاد الميثولوجيا العالمية لا تخلو من هذا الاعتقاد الذي حافظ على بقائه منذ أن خبر الإنسان خوابي الطبيعة و الأرواح المحتجبة عن عيوننا حتى يومنا هذا.

لقد تم الاعتقاد بالجن لدى الخاصة والعامة، فلم يخالف أحد كما يقول ابن تيمية - من طوائف المسلمين في وجود الجن، وجمهور طوائف الكفار على إثبات الجن. أما أهل الكتاب من اليهود والنصارى فهم مقرون بهم كإقرار المسلمين ، وإن وجد فيهم من ينكر ذلك، كما يوجد بعض طوائف المسلمين ، كالجهمية والمعتزلة.

السائد أن الله خلق الملائكة كما ذكرنا - من نور، وخلق الجن من اللهب والدخان، وقد ورد في الكتاب آيات تخبر أن النار عنصر الجن. قال تعالى "والجان خلقناه من قبل من نار السّمُوم "[1] ، وفي مكان آخر (وَخَلَقَ الجان من مارج من نار) وعلى لسان إبليس حينما عصى ربه ولم يمتثل بالسجود لآدم "خَلَقتَني مِن نار وَخَلَقتَهُ من طين".

[1] معجم البلدان، ج 3، ص 106- ٢٠٧

✓ جن سليمان:

والجن كما جاء في الأخبار، هم سكان الأرض قبل النوع البشري: أربعون فرقة كل فرقة ستمائة ألف، أكثروا في الأرض فسادا وثاروا على الآلهة، فلاحقتهم الملائكة وحاربتهم، ثم شتتهم وطردتهم إلى أطراف الجزائر في البحور بعد أن أسرت منهم الكثير كل ذلك وآدم لم يخلق بعد، ولم يسكن الأرض. ولعلهم لم يحشدوا ثانية إلا لسليمان، حيث نادى جبريل: أيتها الجن والشياطين، أجيبوا بإذن الله تعالى نبيه سليمان بن داوود ، فخرجت الجن والشياطين من المغارات ومن الجبال والأحكام والأودية والفلوات والآجام وهي تقول: لبيك لبيك... والملائكة تسوقها سوق الراعي غنمه حتى حشرت لسليمان طائعة ذليلة.[1]

وقد أخبرنا اللّٰه أنه سخرهم لنبيّه سليمان ، فكانوا يقومون له بأعمال كثيرة تحتاج إلى قدرات ، وذكاء ، ومهارات : (ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السّعير - يعملون له ما يشاء من محّاريب وتماثيل وجفانٍ كالجواب وقدورٍ رّاسِيَاتٍ) [سبأ : 12-13] .

[1] القزويني، ص 372-374.

✓انتقال قرى الجن :

وكثيرة تلك الروايات التي من شأنها إثبات اعتقادهم بانتقال قرى الجن بكاملها من مكان إلى مكان بسرعة مدهشة، كأن يقولوا مثلاً: مررنا بقوم ونزلنا للراحة عندهم، ثم غادرناهم، وعدنا بعد قليل فلم نجد للقوم أثراً فعلمنا أنهم الجن، والشبلي في كتابه: «أكام المرجان في أحكام الجان» ينقل عن الزمخشري، قال: «تقول الأعراب ربما نزلنا بجمع كثير، ورأينا خياما وناساً ثم فقدناهم من ساعتنا، يعتقدون أنهم الجن وأن تلك خيامهم وقبابهم ولا يستبعد أن يكون هذا الاعتقاد ناتجاً عن سرعة انتقال البدو من منتجع إلى منتجع حتى إذا مر بهم قافل لم يجد إلا آثارهم، فيقول في نفسه كأنهم الجن، والبدوي لا يعوقه شيء في السفر، وهل سفر البدوي غير هد ورحيل؟

مواطن الجن في بلاد العرب :

عُرف عن الجن أنها تسكن الخراب والفلوات ومواضع النجاسات في "الحمامات" و"القمائم"؛ لذا نهى النبي الكريم صلى الله عليه وسلم عن هذه الأماكن، وحذّر منها، وأمرنا بالتحصّن ، كما عُرف عن الجن سكناها المواضع المظلمة والغيران والكهوف الموحشة، والأماكن المهجورة في الحواضر والبوادي، إلاّ أن تواجدها في الفيافي والقفار

معلومٌ مشهور عند العرب وغيرهم، بل إن العرب على علم بذلك لطبيعة أرضهم وكثرة تنقلهم في الصحاري الموغلة والبيد المقفرة.

وسكنت أرض «وبار» و«جبل سواج» و «أبرق الحنان» و«يبرين» والحِجر من أرض ثمود و«بلاد الشحر» ولذا قيل إن الجن سكنت أرض "وبار" و"جبل سواج" و"أبرق الحنان" من جزيرة العرب، كما سكنت "جبل حرفة" في محافظة النماص، و"يبرين" التي يرى البعض أنها أرض عاد بعد هلاكهم جنوب الجزيرة العربية، كما زعموا أنها سكنت الحجر من أرض ثمود -وهي تختلف عن حجر اليمامة في عالية نجد التي تضم مدينة الرياض حالياً-، وقد ذكر العلامة "أبن جنيدل" أن في "جبل خنوقة" موطنا شهيرا لمعازف الجن، وتقصد العرب بالمعازف ما يصدر في الصحاري من أصوات ونواح وصفير فسّره البعض بصوت الرياح على السواحل والكثبان الرملية.

ورأى البعض الآخر منهم أنما هو صوت نواح الجن، حيث ذكر "الجنيدل" واصفاً "جبل خنوقة" بأنه جبل أشهب تعلو جانبه الغربي برقة كثيب رمل أحمر، وتحف جانبه الشرقي برقة بيضاء واسعة تسمى "أبرق خنوقة"، وموقعه شمال بلدة البجادية غرب محافظة الدوادمي.

وتوقع "الجنيدل" أن "خنوقة" مسكن "بنو مالك" و"بنو الشيصبان"، وهما قبيلتان من الجن الأولى مسلمة لا تؤذي أحداً، والأخرى كافرة لا يسلم من شرها المسافرون والسابلة، ولا

أدل على إسلام الجن وكفرها إلاّ قوله تعالى (وإنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدا)، كما اختلف العرب في موضع "جن البدي" الذي أشار إليه "لبيد بن ربيعة" في شعره؛ فقيل المقصود بها البادية أي الصحاري، وقيل بل "البدي" وادٍ لبني عامر، وبني عامر أمة من القبائل مجتمعة في جدها الأكبر عامر بن صعصعة، ومساكنها بين نجد وجبال تهامة، وهي إلى نجد أقرب على أنها مجاورة لصحاري الربع الخالي من الناحية الشرقية؛ ولذا وُصف أهلها بالشجاعة، وشدة البأس، ونجدة الملهوف، مع ما عرفوا به من الفصاحة ورقة الشعر، لا سيما في الغزل العذري الذي تسيده في تلك البلاد قيس بن الملوح "مجنون بني عامر" في مسرح جبل التوباد في محافظة الأفلاج الحالية.

ولعل للوهم والخوف أكبر الأثر في تحديد أماكن الجن و مسكنها عند الأعراب، وإلا فلماذا لا تكثر معارضات الجن للأعراب إلا في البوادي الجرداء، وبطون الأودية ؟ وإلا لماذا لا تعبث وتحوم إلا في الخرائب والأماكن المهجورة ، حيث تحاك من حولها الخرافات المخيفة والأساطير التي تحذر الناس من الاقتراب من هذه المواضع؟ ينقل الجاحظ عن بعض أصحاب التفاسير: «إن جماعة من العرب كانوا إذا صاروا إلى مكان من الأرض وتوسطوا بلاد الحوش، خافوا عبث الجنان والسعالي والغيلان و الشياطين، فيقوم أحدهم فيرفع صوته: إنا عائذون بسيد هذا الوادي، فلا يؤذيهم أحد، وتصير لهم بذلك حفاوة ، " والملاحظ أن الجن، التي قالوا عنها أنها سخرت لسليمان خرجت من المغاور

والجبال والاحكام والأودية والفلوات، وكلها أماكن رهيبة تلقي الرعب في قلوب الناس، وكثيراً ما تذكر الشعراء مواضيع للجن يضرب بها المثل، وهي في أماكن شتى في بلاد العرب ، كقولهم: جن البدي و جن البقار، وأبرق الحثان الذي يسمع فيه نزيف الجن وذو سمار، وعبقر وغيرها، ولعل عبقر أشهر ما يلفت النظر من هذه الأماكن فهي مجنة كثر الاختلاف عن موقعها، يقولون إنها في أرض اليمن، ويقولون إنها موضع بنواحي اليمامة ، ويقولون إن عبقر اسم لجبل بالجزيرة كان يصنع به الوشي.

الشياطين و الشعراء :

- الأعشى :

كانوا يزعمون أن لكل شاعر شيطانا يلقي عليه، فكان -حسب زعمهم- اسم شيطان الأعشى مسحل بن أثاثة، وشيطان عمرو بن قطن: جهنام، وبشار بن برد: شقنانق، أما النابغة الذبياني فله: هاذر بن مادر، ولأمرئ القيس: لافظ بن لاحظ، وعبيد بن الأبرص: هبيد بن الصلادم، وللكميت: مدرك بن واغم، وغيرهم كثير، ولا أدل على ذلك عندهم إلاّ ما روي من الأشعار التي نُسبت للجن كقول "النسناس" الذي لحق به كلبان ليصطاداه وهو يجري هرباً منهما ويقول في قصيدة عجيبة:

الويل لي مما به دهاني   حظي من الهموم والأحزان

قفا قليلاً أيها الكلباني   واستمعا قولي وصدقاني

لولا سباتي ما ملكتاني   حتى تموتا أو تفارقاني

لست بخوارٍ ولا جبان   ولا بنكس رعش الحنان

لكن قضاء الملك الرحمن   يذل ذا القوة والسلطان

و هناك لغط دائر منذ زمن بعيد ، من أيام الجاهلية الأولى ، في العلاقة بين (الجن و الشعراء) وهل هناك علاقة فعلاً أم أنها أضغاث كلام لا يقدم أو يؤخر ، و الآراء كثرت في هذا الحديث ، وهناك شواهد تؤكدهذه العلاقة ، تناقلتها الكتب السابقة و الألسن نشرت هذه القصص ، لكن البعض منها لا يعرف صحته من عدمه.

أشهر تِلك القصص التي وردت في الكتب التي تحدث عن هذه العلاقة ، هي عن الشاعر الكبير شاعر اليمامة الأول " الأعشى " أحد أعمدة الشعر العربي إن لم يكن عمادها الأقوى لما يحظى به من مكانة خاصة في قلوب المجتمع آنذاك!

"يروي الأعشى ميمون بن قيس وهو من أحد أصحاب المذهبات أو المعلقات على المشهور أنه كان متوجها إلى اليمن لمدح بعض أمراء القبائل وفي طريقه لليمن أظلم عليه الليل وهو بواد مقفر وكان على اثر سماء يعني تمطر بغزارة، احتمى في أحد الكهوف وإذا به يرى رجلا واقفا أمامه كثيف اللحية وكانت بيضاء قال الأعشى: من أنت؟ فأجابه: أنا عابر

سبيل. وأنت؟ قال: أنا شاعر وأتكسب بشعري. قال له الشايب: ماذا قلت من شعر؟ قال الأعشى: قلت:

ودع هريرة إن الركب مرتحل * وهل تطيق وداعا أيها الرجل[1]

وهذا البيت مطلع معلقته الشهيرة ، المهم استوقفه الرجل الكبير وقال : من هريرة هذه ؟ قال الأعشى: اسم انطلق في روعي فقلته ولا أعلم من هريرة تلك . فواصل إنشاد معلقته الى أن قال :

تقول ماوية ان جئت زائرها * ويلي عليك وويلي منك يا رجل

فاستوقفه الرجل الكبير فقال: ومن ماوية تلك؟ قال الأعشى: مثل اختها اسم انطلق في روعي فقلته!

قال له الرجل الكبير : هل تعلم من هريرة وماويه؟ قال: لا. فنادى الرجل الكبير اخرجي يا هريرة و يا ماوية فخرجتا ،فكان طولهما لا يتعدى شبرا واحدا، قال الأعشى: من انت يا رجل؟

قال انا : هاجسك وملقي الشعر على لسانك، انا مسحل بن أثاثه وهؤلاء بناتي هريرة وماوية."

و قد ذكر بعض الشعراء ، أسماء شياطينهم في أشعارهم ، فذكر الأعشى " مسحلاً " حين

---

[1] ديوان الأعشى، محمد حسين، المطبعة النموذجية، ص 55.

هجاه " جهنام " (فالأعشى يدعو صديقه الشيطان " مسحلاً " ، في معرض هجائه عمير بن عبدالله ابن المنذر و يذكر شيطان خصمه " جهنام ") بقوله:

فلمّا رأيتُ الناسَ للـشَّرِّ أقْبَلَوا .. وثابُوا إلينا مِن فَصيحٍ وأعْجَمِ

دَعَوْتُ خليلي مِسْحلاً، ودَعَوا لَهُ .. جُهنّام جَدْعاً للهجِينِ المُذَمَّمِ

ومن الشعراء الذين ذكروا شياطينهم في أشعارهم " حسان بن ثابت " ، إذ روي عنه قصة مع السعلاة ، يذكر من خلالها اسم شيطانه، وهي أن السعلاة لقيته في بعض طرقات المدينة وهو غلام ، قبل أن يقول الشعر ، فبركت على صدرِهِ ، وقالت : أنت الذي يرجو قومك أن تكون شاعرهم ؟ قال: نعم ، قالت : فأنشدني ثلاثة أبيات على روي واحد وإلا قتلتك. فقال:

ترعــرعِ فينا الغـلامُ .. فما إن يقال له من هوه

إذا لم يسـد قبل شـد الازار .. فذلك فــــينا لا هوه

ولي صاحب من بني الشيصبان .. فطوراً أقول وطوراً هوه

*و الشيصبان قبيلة من الجن ، فزعم أنه و شيطانه يتناوبان في قول الشعر.

وقد قسم العرب شياطين الشعراء إلى فئتين من حيث مستوى الإجادة في الشعر ، فالشيطان الذي يلهم شعراً جيداً اسمه " الهوبر " والذي يلهم شعراً فاسداً اسمه " الهوجل" .

الغول :

✓ تأبط شرا :

وروي أن الغول إنما سميت غولاً؛ لأنها تغتال الناس أي تهلكهم[1]، ولذا كانت العرب تقول للمسافر "هون الله عليك غول هذا الطريق"، كما كانت تطلق على "أم الكبائر الغول"، ومنها اشتق الكيميائيون العرب إبان تحضيرهم مسمى "الغول الإيثيلي" أو "الإيثانول" على مادة الخمر حيث أن كلمة "الكحول" بالإنجليزية عائدة إلى أصلها "الغول" في العربية، بل قد سبق هذا كله كتاب الله عز وجل في قوله تعالى في وصف خمر الجنة: (لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ)، كما قال راوية العرب أو عبيدة: الغول أن يغتال عقولهم وأنشد:

ما زالت الكأس تغتالهم وتذهب بالأول الأول

كما قالوا أن أنثى الغول تسمى "غيلة"، وأن ذكرها يسمى "قطرب"، ولذا عرف عن الغول التلون في صورتها وثيابها؛ فهي في بعض صورها كالإنسان إلاّ رجليها فإنها رجلي حمار، وتزعم العرب أن الغول تتغول لهم في الخلوات فيخاطبونها وربما ضيفوها كما قال الشاعر "تأبط شراً":

ما أصبحت والغول لي جارة فيا جارتي أنت ما أهولا

---

[1] البيان و التبيين، الجاحظ، ج6، ص131 و الدميري ص 167، ج2.

فمن كان يسأل عن جارتي   فإن لها باللوى منزلاً

وكان هذا الشاعر الجاهلي "ثابت بن جابر" المعروف ب "تأبط شرا" من صعاليك العرب الذين يهيمون في الصحاري والخلوات، ويسابقون النعام والغزلان ويعيشون في البراري وبطون الأودية، كما زعمت العرب أن الغيلان "جمع غول" توقد لهم النيران بالليل، وتحتال على السابلة والمسافرين حتى قال "أبو المطراب" يصور حاله معها في إحدى رحلاته:

فلله در الغول أي رفيقة   لصاحب قفر حالف وهو معبر

أرنت بلحن بعد لحن وأوقدت   حوالي نيراناً تلوح وتزهر

أساطير العرب و أيامها :

❖إرم :

توصف مدينة إرم ذات العماد من عاد، وهذه المدينة هي التي لم يخلق اللّٰه مثلها في البلاد، وقيل إنّ عاد من العماد الذي يعني عماد بيوت الشعر، ويُراد بها القبيلة، واتصفت بيوت هذه المدينة بطول عمادها، وفي ذلك دلالة على طول أجسام أهلها، حيث كانت هذه المدينة رفيعة البناء، وورد في ذكرها قصص تفوق الخيال، ولكنّ اللّٰه تعالى خسف هذه المدينة، واندثرت من الوجود، [1] وجاء ذكرها في القرآن الكريم، إذ يقول جلّ في علاه:

(ألَمْ تَرَ كيفَ فعلَ ربُكَ بعاد، إرمَ ذاتِ العماد، التي لم يُخْلَقْ مثلُها في البلاد). [2]

وُصف قوم عاد بطولهم العظيم، وعاد هو الذي أسّس المدينة، وكان له ابنان اثنان، وهما: شداد وشديد [3]، وتملّكا بعد وفاة أبيهما الملك الكبير، وكانا ظالمين ومتجبرين في حكمهم، وبعدما مات شديد أكمل شداد تملّك البلاد، وكان يُحبُّ المُطالعة كثيراً، وخاصة قراءة الكتب الدينيّة القديمة، وعندما قرأ عن أوصاف الجنّة التي أعدّها اللّٰه لعباده الصالحين، أراد أن يجعل مثلها في الأرض، فما كان عليه إلّا أنْ أحضر أمراء وقادة البلاد التي

---

[1] «إرم ذات العماد» .. مدينة على مشارف صحراء الربع الخالي"، www.alittihad.ae، 26-7-2013، اطّلع عليه بتاريخ 13-7-2018. بتصرّف.

[2] سورة الفجر ، آية: 6-8.

[3] الدين و الأسطورة عند العرب في الجاهلية، ص144.

يحكمها، وأخبرهم برغبته في بناء جنّة على الأرض، فوكّل جماعة لبناء تلك الجنّة، وبالفعل تمّ اختيار أفضل أراضي اليمن من أجل البناء، وجُمع الذهب، والفضة، والدرّ، والياقوت، والمسك، والعنبر، والزعفران من كافة البلاد التي يحكمها الولاة، واستخرجت الجواهر واللآلئ من أعماق البحار، كما واستخرج الياقوت وغيره من الجواهر، وهكذا كانت هذه هي لوازم بناء مدينة إرم ذات العماد.[1]

❖ ثمود :

كما الحال في قوم عاد فقد منّ الله -تعالى- على قوم ثمود بالنعم الوفيرة، والعطاء الجزيل، وكانوا كذلك يبنون البيوت والقصور، وينحتون الجبال يتقنون صناعتها، ويبرعون في ذلك، ثمّ كفروا أنعم الله -تعالى- عليهم، وجعلوا له شركاء يعبدونهم من دونه، فأرسل الله فيهم نبيّهم صالحاً عليه السلام، مرشداً، وهادياً، ومبشّراً، فاستخفّوا فيه وفي دعوته، ثمّ جعلوا بينه وبينهم تحدّياً حتى يؤمنوا به، ويصدّقونه، فقد كان يوماً جمعٌ من القوم جالسين في نادٍ لهم، فدخل عليهم صالح -عليه السلام- فدعاهم إلى توحيد الله وهديه، فتحدّوه إن هو أخرج ناقةً من الصخرة، بمواصفاتٍ معيّنةٍ ذكروها له، فسيؤمنون بالله تعالى، واحداً أحداً، فسألهم نبيّهم إن كانوا يعنون حقّاً ما يقولون، فأكّدوا له أنّهم سيؤمنون كلّهم إن خرجت تلك الناقة من الصخرة المذكورة، فصلّى صالح عليه السلام، ودعا الله -تعالى- أن يحقّق

[1] مسألة: الجزء الثامن" ، www.library.islamweb.net، اطّلع عليه بتاريخ 13-7-2018، بتصرّف.

لهم ما أرادوا، فأمر الله -تعالى- بذلك، فانشقّت الصخرة عن ناقةٍ عشراء بكلّ المواصفات التي ذكروها له، وحين خرجت تلك الناقة من الصخرة كانت العلامة الفارقة، والمعجزة من عند الله -تعالى- التي تؤيّد صدق صالح عليه السلام، فآمن معه خلقٌ كثيرٌ، وصدّقوا نبوّته، لكنّ الكثير منهم كذلك استمرّوا على كفرهم وإجحادهم، وبقيت تلك الناقة بين أظهرهم تأكل، وتشرب، وتعطيهم اللبن، حتى تمادى بعض القوم بالكفر، فأقبلوا على قتل ناقة نبيّهم المرسلة من ربّهم، فقتلوها فعلاً، قال الله تعالى: (فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)،[1] وحين ذلك شاء الله -تعالى- أن يُلحق بهم العذاب لكفرهم وتكذيبهم، فأمهلهم ثلاثة أيّامٍ، ثمّ أرسل إليهم جبريل -عليه السلام- فصاح فيهم صيحةً ارتجّت من قوّتها الأرض، وتقطّعت قلوبهم، وتدمّرت مساكنهم، ووقع أمر الله -تعالى- بإهلاكهم.

❖ طسم و جديس :

طسم وجديس هما قبيلتان سكنتا اليمامة والمنطقة المحيطة حولها ، ويذكر أن قبيلة جديسا هي القبيلة التي ذلت على يد طسم بحكم رجل يقال له عمليق . ويذكر أن قبيلة جديس هما قوم من العرب البائدة ولا يكاد يذكروا إلا مع ذكر قبيلة طسم إلا أنهم انقرضوا . وكلا من

[1] سورة الأعراف، آية: 77.

القبيلتين طسم وجديس هما من سكان جزيرة العرب القدماء والذين يعرفوا بـ اقوام عاد وثمود العماليق ، وهم الشهيرين بالحضارات العظيمة في وسط شبة الجزيرة العربية.

وقد ذكر طسم في شعر الحارث بن حلزة ، في :

أم علينا جرى إياد كما قيل لطسم أخوكم الأبّاء.

وقال الأصمعي في شرحه: " كان طسم وجديس أخوين ، فكسرت جديس على الملك خراجه ، فأخذت طسم بذنب جديس" فضرب لذلك بها المثل ، لمن يؤخذ بجريرة غيره.

❖ عملوق ملك طسم:

كان لقبيلتي طسم وجديس ملكاً واحد يعرف بإسم "العملوق" ، وهو ملك لاينهاه شيء عن هواه ، فقد كان له هوي في إصراره علي قهر قبيلة جديس واخماد طموحاتها ، وهو من قبيلة طسم .

ويذكر أن جديسا ذلت على يد طسم بحكم رجل يقال له عمليق، وجعل أن لا تزف بكر من جديس حتى تساق إليه فيفترعها قبل زوجها، فكان أن انتقمت جديس غدرا بعد أن أصاب العار أخت سيد جديس ويقال له الأسود بن عفار، وكان اسمها شموس وقتل عمليق على يد الأسود بن عفار وأصبح حاكما على طسم وجديس وحكم بينهم بالعدل، ولكن رجلا من طسم يقال له رياح بن مرة استغاث بحسان بن تبع الحميري، فأجاب له

طلبه وسار معه إلى اليمامة، فحاولت زرقاء اليمامة تنبيه قومها، فلم يصدقوها[1]، فقتل من جديس على يد طسم والحميريين ودُكت منازلهم.

ومن الأشعار التي ذكرت على الملك "عملوق: "

إبدِي بعملوق وَقُومِي فاركبي وَبَادِرِي الصبح بأمر معجب

فَمَا لِبِكْرٍ بَعدكُمْ مِنْ مذهب وأيضاً عن حكم الملك عملوق:

أَيَصْلُح ما يؤتى إلى فتياتكـم . . . وأنتم رجال فيكم عدد الرمل

أَيَصْلُح تمشي في الدما فتياتُكـم . . . صبيحة زُفَّت في النساء إلى البُعل

فإن أنتم لاتغضبوا بعد هذه . . . فكونوا نساء لا تفروا من الكحل

ودونكمٍ طيبَ العروس؛فإنمـا . . . خلقتم لأثواب العروس وللغسل

فقبحا و شيكاً للذى ليس دافعـاً . . . ويختال يمشي بيننا مشية الفحل

فلو أننا كنا الرجـال وكنتم . . . نساء لكنا لا نقر على الذل

فموتوا كراماً ، واصبروا لعدوكم . . . بحرب تَلظى في القرام من الجزل

ولاتجزعوا للحرب يا قوم ، إنمـا . . . تقوم بأقوام كرام على رِجْل

---

[1]الأغاني ج 10 ص 48-50.

فيهلك فيها كل نِكْسٍ مواكل ... ويسلم فيها ذو النجابة والفضل.

❖ العماليق :

كلمة عملاق في اللغة تعني الطويل، ويبدو أن قبائل العماليق كانت تتميز بشيء من الطول والجسامة، و يرى بعض المؤرخين الحديثين أن سكان الجزيرة العربية كانوا حتى عام 1600 قبل الهجرة ضخاماً، وبقي لهم أحفاد إلى ما بعد ذلك وعرفوا بهذا الإسم، وإن لم يكونوا يحملون ذلك القدر من الطول ولايعمرون ما يعمر به أسلافهم. والعماليق في كتب التاريخ العربية من أحفاد" عمليق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح ."كانوا يسكنون الجزيرة العربية ثم رحلوا وسكنوا مع الأحفاد الآخرين لنوح في منطقة الرافدين ثم خرجوا مع مجموعات أخرى، وتكاثر أحفاد نوح حتى زاحم بعضهم بعضاً خرجوا من العراق[1].

عاد العماليق إلى الجزيرة العربية وانتشروا في أنحائها، و سكنت قبائلهم الكثيرة في نجد والبحرين وعمان واليمن وتهامة وبلغوا أطراف بلاد الشام و وايضا انتشروا بمصر وكان منهم بعض حكام مصر أيضاً وهم الهكسوس..

[1] معجم البلدان، ج4 ص 1028.

❖ سد مأرب :

يعتبر سد مأرب بأنّه معجزة تاريخ شبه الجزيرة العربيّة حسبما قال الباحثون، وهو أقدم السدود المائيّة في العالم، حيث يعود تاريخ إنشاؤه إلى بديات الألفيّةِ الأولى قبل الميلاد، يعتبر واحداً من أهم السدود في الجمهورية اليمنية، حيث كان فيما مضى يروي ما يزيد ثمانيةً وتسعين ألف كيلومتر مربع ،بني السد من حجارةٍ تم اقتطاعها من صخور الجبال، واستخدم الجبس لربط تلك القطع الصخرية ببعضها البعض، وتمّ استخدام قضبانٍ على شكلٍ أسطواني مصنوعة من الرصاص والنحاس، تمّ وضعها في ثقوب الصخور حيث تصبح كالمسمار و يتم دمجها بصخرة تتطابق معها، وذلك لضمان مقاومة السد لخطر الزلازل والسيول العنيفة، ومقاومته لكل هذه العوامل. انهار السد لمرّاتٍ عدة، وتعرّض للإهمال فلم يتم ترميمه بسبب الأوضاع الأمنية والاضطرابات التي تعرّضت لها البلاد منذ آخر تاريخ آخر انهيار للسد عام خمسمئةٍ وخمسٍ وسبعين.[1]

يعدّ سد مأرب من عجائب الزمن القديم؛ حيث يعود تاريخ بناؤه إلى القرن الثامن قبل الميلاد، ويقال بأنه تم بناء السد وتشييده في زمن الملكة بلقيس ملكة سبأ. تعددت الفرضيات حول من قام ببناء سد مأرب، لكن أغلب تلك الفرضيات تقول بأن من قام ببناء السد هو سبأ بن يشجب، وجعل منه مصباً لسبعين نهراً، لكن سبأ قد توفي قبل

[1] J. Guthrie Brown, Donald C. Jackson, "Dam ENGINEERING" ،www.britannica.com, Retrieved 9-6-2018. Edited

تشييد السد، فأتم ملوك حمير التشييد ، وكانت منطقة اليمن والجزيرة العربية حسب الدراسات منطقةً وفيرة المياه والأمطار، وهذا ما استدعى بناء السد في تلك الفترة بغرض إدارة مياه الأمطار، وحفظها ليتمّ استخدامها في أوقات الحاجة إليها، حيث كانت المياه المحفوظة في السد تفي حاجة الناس في السقاية والريّ طوال فترة الصيف.[1]

❖ رؤيا ربيعة ابن نصر وتبان أسعد:

قال ابن إسحاق : وكان ربيعة بن نصر ملك اليمن بين أضعاف ملوك التبابعة ، فرأى رؤيا هالته ، وفظع بها فلم يدع كاهنا ، ولا ساحرا ، ولا عائفا ولا منجما من أهل مملكته إلا جمعه إليه ، فقال لهم : إني قد رأيت رؤيا هالتني ، وفظعت بها ، فأخبروني بها وبتأويلها ؛ قالوا له: اقصصها علينا نخبرك بتأويلها ؛ قال : إني إن أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم عن تأويلها ، فإنه لا يعرف تأويلها إلا من عرفها قبل أن أخبره بها . فقال له رجل منهم : فإن كان الملك يريد هذا فليبعث إلى سطيح وشق ، فإنه ليس أحد أعلم منهما ، فهما يخبرانه بما سأل عنه.

واسم سطيح ربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب بن عدي بن مازن غسان . وشق : ابن صعب بن يشكر بن رهم بن أفرك بن قسر بن عبقر بن أنمار بن نزار ، وأنمار أبو بجيلة وخثعم .

[1]"The Marib Dam", nabataea.net,2002 ،Retrieved 9-6-2018. Edited.

قال ابن هشام : وقالت : اليمن وبجيلة بنو أنمار : بن إراش بن لحيان بن عمرو بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ ؛ ويقال: إراش بن عمرو بن لحيان بن الغوث . ودار بجيلة وخثعم يمانية .

قال ابن إسحاق : فبعث إليهما ، فقدم عليه سطيح قبل شق ، فقال له: إني رأيت رؤيا هالتني وفظعت بها ، فأخبرني بها ، فإنك إن أصبتها أصب تأويلها .

قال : أفعل ، رأيت حممه خرجت من ظلمه ، فوقعت بأرض تهمه، فأكلت منها كل ذات جمجمه؛ فقال له الملك : ما أخطأت منها شيئا يا سطيح ، فما عندك في تأويلها ؟ فقال : أحلف بما بين الحرتين من حنش ، لتهبطن أرضكم الحبش ، فلتملكن ما بين أبين إلى جرش ؛ فقال له الملك : وأبيك يا سطيح ، إن هذا لنا لغائظ موجع ، فمتى هو كائن ؟ أفي زماني هذا ، أم بعده ؟ قال : لا ، بل بعده بحين، أكثر من ستين أوسبعين ، يمضين من السنين ، قال : أفيدوم ذلك من ملكهم أم ينقطع ؟ قال : لا ، بل ينقطع لبضع وسبعين من السنين ، ثم يقتلون ويخرجون منها هاربين؛ قال ، ومن يلي ذلك من قتلهم وإخراجهم ؟ قال : يليه إرم ذي يزن ، يخرج عليهم من عدن ، فلا يترك أحدا منهم باليمن ؛ قال : أفيدوم ذلك من سلطانه ، أم ينقطع ؟ قال : لا، بل ينقطع ؛ قال : ومن يقطعه ؟ قال : نبي زكي ، يأتيه الوحي من قبل العلي ؛ قال : وممن هذا النبي ؟ قال : رجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر ، يكون الملك في قومه إلى أخر الدهر ؛

قال : وهل للدهر من أخر؟ قال : نعم ، يوم يجمع فيه الأولون والآخرون ، يسعد فيه المحسنون ، ويشقى فيه المسيئون ؛ قال : أحق ما تخبرني ؟ قال : نعم، والشفق والغسق ، والفلق إذا اتسق ، إن ما أنبأتك به لحق .[1]

ثم قدم عليه شق ، فقال له كقوله لسطيح ، وكتمه ما قال سطيح ، لينظر أيتفقان أم يختلفان ؛ فقال : نعم ، رأيت حممه، خرجت من ظلمه، فوقعت بين روضة وأكمه، فأكلت منها كل ذات نسمه 0 قال : فلما قال له ذلك ،وعرف أنهما قد اتفقا وأن قولهما واحد إلا أن سطيحا قال : (وقعت بأرض تهمه، فأكلت منها كل ذات جمجمه). وقال شق : (وقعت بين روضة وأكمه، فأكلت منها كل ذات نسمه).

فقال له الملك : ما أخطأت يا شق منها شيئا ، فما عندك في تأويلها ؟ قال : أحلف بما بين الحرتين من إنسان ، لينزلن أرضكم السودان ، فليغلبن على كل طفلة البنان ، وليملكن ما بين أبين إلى نجران .

فقال له الملك : وأبيك يا شق ، إن هذا لنا لغائظ موجع ، فمتى هو كائن؟ أفي زماني ، أم بعده ؟ قال : لا ، بل بعده بزمان ، ثم يستنقذكم منهم عظيم ذو شأن ، ويذيقهم أشد الهوان ؛ قال : ومن هذا العظيم الشان ؟ قال : غلام ليس بِدَنِيّ، ولا مُدَنّ، يخرج عليهم من بيت ذي يزن، فلا يترك أحدا منهم باليمن ؛ قال : أفيدوم سلطانه ، أم ينقطع ؟ قال:

[1] السيرة النبوية لابن هشام، ج1، ط1، المطبعة الخيرية، 1329ه، ص16.

بل ينقطع برسول مرسل يأتي بالحق والعدل ، بين أهل الدين والفضل، يكون الملك في قومه إلى يوم الفصل ؛ قال : وما يوم الفصل ؟ قال : يوم تجزى فيه الولاة ، ويدعى فيه من السماء بدعوات ، يسمع منها الأحياء والأموات ، ويُجمع فيه بين الناس للميقات ، يكون فيه لمن اتقى الفوز والخيرات ؛ قال : أحق ما تقول ؟ قال : إي ورب السماء والأرض ، وما بينهما من رفع وخفض ، إن ما أنبأتك به لحق ما فيه أمض.

قال ابن هشام : أمض : يعني شكًّا ، هذا بلغة حمير ، وقال أبو عمرو: أمض أي باطل .

فوقع في نفس ربيعة بن نصر ما قالا ، فجهز بنيه وأهل بيته إلى العراق بما يصلحهم ، وكتب لهم إلى ملك من ملوك فارس يقال له سابور بن خُرَّزاذ ، فأسكنهم الحيرة .

فمن بقية ولد ربيعة بن نصر النعمان بن المنذر ، فهو في نسب اليمن وعلمهم النعمان بن المنذر بن النعمان بن المنذر بن عمرو بن عدي بن ربيعة بن نصر ، ذلك الملك .

قال ابن هشام : النعمان بن المنذر بن المنذر ، فيما أخبرني خلف الأحمر.

قال ابن إسحاق : فلما هلك ربيعة بن نصر رجع ملك اليمن كله إلى حسان بن تبان أسعد أبي كرب وتبان أسعد هو تبع الآخر ابن كلي كرب بن زيد ، وزيد هو تبع الأول بن عمرو ذي الأذعار بن أبرهة ذي المنار بن الريش - قال ابن هشام :ويقال الرائش - قال ابن إسحاق : ابن عدي بن صيفي بن سبأ الأصغر بن كعب ، كهف الظلم ، بن زيد بن

سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن العرنجج ، والعرنجج : حمير بن سبأ الأكبر ابن يعرب بن يشجب بن قحطان .

قال ابن هشام : يشجب : ابن يعرب بن قحطان .

قال ابن إسحاق : وتبان أسعد أبو كرب الذي قدم المدينة ، وساق الحبرين من يهود المدينة إلى اليمن ، وعمر البيت الحرام وكساه ، وكان ملكه قبل ملك ربيعة بن نصر .

قال ابن هشام :وهو الذي يقال له :

ليت حظي من أبي كرب * أن يسد خيره خبله

قال ابن إسحاق : وكان قد جعل طريقه - حين أقبل من المشرق - على المدينة ، وكان قد مر بها في بدأته فلم يهج أهلها ، وخلف بين أظهرهم ابنا له ، فقتل غيلة . فقدمها وهو مجمع لإخرابها ، واستئصال أهلها ، وقطع نخلها ؛ فجمع له هذا الحي من الأنصار ، ورئيسهم عمرو ابن طلة أخو بني النجار ، ثم أحد بني عمرو بن مبذول ، واسم مبذول: عامر بن مالك بن النجار ، واسم النجار : تيم الله بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر .[1]

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام، ج1، ط1، المطبعة الخيرية، 1329ه، ص19.

قال ابن هشام :عمرو بن طلة : عمرو بن معاوية بن عمرو بن عامر بن مالك بن النجار : وطلة أمه ، وهي بنت عامر بن زريق بن عامر بن زريق بن عبد الحارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج .

قال ابن إسحاق : وقد كان رجل من بني عدي بن النجار ، يقال له أحمر، عدا على رجل من أصحاب تبع حين نزل بهم فقتله ، وذلك أنه وجده في عذق له يجُدُّهُ فضربه بمنجله فقتله ، وقال : إنما التمر لمن أبره. فزاد ذلك تبعا حنقا عليهم ، قال : فاقتتلوا . فتزعم الأنصار أنهم كانوا يقاتلونه بالنهار ، ويقرونه بالليل ، فيعجبه ذلك منهم ، ويقول : والله إن قومنا لكرام .

فبينما تبع على ذلك من قتالهم ، إذ جاءه حبران من أحبار اليهود ، من بني قريظة - وقريظة والنضير والنجّام وعمرو ، وهو هدل ، بنو الخزرج بن الصريح بن التؤامان بن السبط بن اليسع بن سعد بن لاوي بن خير بن النجام بن تنحوم بن عازر بن عزرى بن هارون بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب ، وهو إسرائيل بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن ، صلى الله عليهم - عالمان راسخان في العلم ، حين سمعا بما يريد من إهلاك المدينة وأهلها . فقالا له : أيها الملك ، لا تفعل فإنك إن أبيت إلا ما تريد حيل بينك وبينها ، ولم نأمن عليك عاجل العقوبة ؛ فقال لهما : ولم ذلك ؟ فقالا : هي مهاجر نبي يخرج من هذا

الحرم من قريش في أخر الزمان ، تكون داره وقراره ؛ فتناهى عن ذلك، ورأى أن لهما علما ، وأعجبه ما سمع منهما ، فانصرف عن المدينة، واتبعهما على دينهما ، فقال خالد بن عبد العزى بن غزية بن عمرو بن عبد بن عوف بن غنم بن مالك بن النجار يفخر بعمرو بن طلة :[1]

أصحا أم قد نهى ذكره * أم قضى من لذة وطرهْ

أم تذكرت الشباب وما * ذكرك الشباب أو عصره

إنها حرب رباعية * مثلها أتى الفتى عبره

فاسألا عمران أو أسدا * إذ أتت عدوا مع الزهرهْ

فيلق فيها أبو كرب * سبغ أبدانها ذفره

ثم قالوا : من نؤم بها * أبني عوف أم النجرهْ

بل بني النجار إن لنا * فيهم قتلى وإن تره

فتلقتهم مسايفة * مدها كالغيبة النثره

فيهم عمرو بن طلة ملى * الإله قومه عمره

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام، ج1، ط1، المطبعة الخيرية، 1329ه، ص20.

سيد سامى الملوك ومن * رام عمرا لا يكن قدره[1]

وهذا الحي من الأنصار يزعمون أنه إنما كان حنق تبع على هذا الحي من يهود الذين كانوا بين أظهرهم ، وإنما أراد هلاكهم فمنعوهم منه ، حتى انصرف عنهم ، ولذلك قال في شعره :

حنقا على سبطين حلا يثربا * أولى لهم بعقاب يوم مفسد

قال ابن هشام :الشعر الذي فيه هذا البيت مصنوع ، فذلك الذي منعنا من إثباته .

قال ابن إسحاق : وكان تبع وقومه أصحاب أوثان يعبدونها ، فتوجه إلى مكة ، وهي طريقه إلى اليمن ، حتى إذا كان بين عسفان ، وأمج ، أتاه نفر من هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد ، فقالوا له: أيها الملك ، ألا ندلك على بيت مال دائر أغفلته الملوك قبلك ، فيه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة ؟ قال : بلى ؛ قالوا : بيت بمكة يعبده أهله ، ويصلون عنده . وإنما أراد الهذليون هلاكه بذلك ، لما عرفوا من هلاك من أراده من الملوك وبغى عنده . فلما أجمع لما قالوا أرسل إلى الحبرين ، فسألهما عن ذلك ، فقالا له : ما أراد القوم إلا هلاكك وهلاك جندك ، ما نعلم بيتا لله اتخذه في الأرض لنفسه غيره ، ولئن فعلت ما دعوك إليه لتهلكن وليهلكن من معك جميعا ؛ قال : فماذا

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام، ج1، ط1، المطبعة الخيرية، 1329ه، ص21.

تأمرانني أن أصنع إذا أنا قدمت عليه ؟ قالا : تصنع عنده ما يصنع أهله : تطوف به وتعظمه وتكرمه ، وتحلق رأسك عنده ، وتذل له ، حتى تخرج من عنده؛ قال : فما يمنعكما أنتما من ذلك ؟ قال : أما والله إنه لبيت أبينا إبراهيم، وإنه لكما أخبرناك ، ولكن أهله حالوا بيننا وبينه بالأوثان التي نصبوها حوله ، وبالدماء التي يهرقون عنده ، وهم نجس أهل شرك - أو كما قالا له - فعرف نصحهما وصدق حديثهما فقرب النفر من هذيل ، فقطع أيديهم وأرجلهم ، ثم مضى حتى قدم مكة ، فطاف بالبيت ، ونحر عنده، وحلق رأسه ، وأقام بمكة ستة أيام - فيما يذكرون - ينحر بها للناس ، ويطعم أهلها ويسقيهم العسل ، ثم أري في المنام أن يكسو البيت أحسن من ذلك ، فكساه الخصف ؛ ثم أري أن يكسوه أحسن من ذلك ، فكساه المعافر ؛ ثم أري أن يكسوه أحسن من ذلك ، فكساه الملاء والوصائل ، فكان تبع - فيما يزعمون - أول من كسا البيت ، وأوصى به ولاته من جرهم ، وأمرهم بتطهيره وألا يقربوه دما ولا ميتة ولا مئلاة، وهي المحايض ، وجعل له بأبا ومفتاحا ، وقالت سبيعة بنت الأحب بن زبينة بن جذيمة بن عوف بن نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان ، وكانت عند عبد مناف بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ، لابن لها منه يقال له خالد ، تعظم عليه حرمة مكة ، وتنهاه عن البغي فيها ، وتذكر تبعا وتذلله لها ، وما صنع بها :

أبني لا تظلم بمكة * لا الصغير ولا الكبيرْ

واحفظ محارمها بني * ولا يغرنك الغرور

أبني من يظلم بمكة * يلق أطراف الشرور

أبني يضرب وجهه * ويلح بخديه السعير

أبني قد جربتها * فوجدت ظالمها يبور

الله أمنها وما * بنيت بعرصتها قصور

والله آمن طيرها * والعصم تأمن في ثبير

ولقد غزاها تبع * فكسا بنيتها الحبير

وأذل ربي ملكه * فيها فأوفى بالنذور

يمشي إليها حافيا * بفنائها ألفا بعير

ويظل يطعم أهلها * لحم المهاري والجزور

يسقيهم العسل المصفى * والرحيض من الشعير

والفيل أُهلك جيشه * يرمون فيها بالصخور

والملك في أقصى البلا * د وفي الأعاجم والخزير

فاسمع إذا حُدّثت وافهم * كيف عاقبة الأمور

قال ابن هشام :يوقف على قوافيها لا تعرب .[1]

ثم خرج منها متوجها إلى اليمن بمن معه من جنوده وبالحبرين ، حتى إذا دخل اليمن دعا قومه إلى الدخول فيما دخل فيه ، فأبوا عليه ، حتى يحاكموه إلى النار التي كانت باليمن .

قال ابن إسحاق : حدثني أبو مالك بن ثعلبة بن أبي مالك القرظي ، قال: سمعت إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله يحدث :

أن تبعا لما دنا من اليمن ليدخلها حالت حمير بينه وبين ذلك ، وقالوا : لا تدخلها علينا ، وقد فارقت ديننا ، فدعاهم إلى دينه وقال : إنه خير من دينكم ؛ فقالوا : فحاكمنا إلى النار ؛ قال : نعم . قال وكانت باليمن - فيما يزعم أهل اليمن - نار تحكم بينهم فيما يختلفون فيه ، تأكل الظالم ولا تضر المظلوم ، فخرج قومه بأوثانهم وما يتقربون به في دينهم ، وخرج الحبران بمصاحفهما في أعناقهما متقلديها ، حتى قعدوا للنار عند مخرجها الذي تخرج منه ، فخرجت النار إليهم ، فلما أقبلت نحوهم حادوا عنها وهابوها ، فذمرهم من حضرهم من الناس ، وأمروهم بالصبر لها ، فصبروا حتى غشيتهم ، فأكلت الأوثان وما قربوا معها ،

[1] السيرة النبوية لابن هشام، ج1، ط1، المطبعة الخيرية، 1329ه، ص24.

ومن حمل ذلك من رجال حمير ، وخرج الحبران بمصاحفهما في أعناقهما تعرق جباههما لم تضرهما فأصفقت عند ذلك حمير على دينه ؛ فمن هنالك وعن ذلك كان أصل اليهودية باليمن .

قال ابن إسحاق : وقد حدثني محدث أن الحبرين ، ومن خرج من حمير، إنما اتبعوا النار ليردوها ، وقالوا : من ردها فهو أولى بالحق ؛ فدنا منها رجال من حمير بأوثانهم ليردوها فدنت منهم لتأكلهم، فحادوا عنها ولم يستطيعوا ردها ، ودنا منها الحبران بعد ذلك ، وجعلا يتلوان التوراة وتنكص عنهما ، حتى رداها إلى مخرجها الذي خرجت منه، فأصفقت عند ذلك حمير على دينهما ، والله أعلم أي ذلك كان .

قال ابن إسحاق : وكان رئام بيتا لهم يعظمونه ، وينحرون عنده ، ويكلمون منه إذ كانوا على شركهم . فقال الحبران لتبع : إنما هو شيطان يفتنهم بذلك فخل بيننا وبينه ؛ فاستخرجا منه - فيما يزعم أهل اليمن - كلبا أسود فذبحاه ، ثم هدما ذلك البيت ، فبقاياه اليوم - كما ذكر لي - بها آثار الدماء التي كانت تراق عليه .[1]

[1] السيرة النبوية لابن هشام، ج1، ط1، المطبعة الخيرية، 1329ه، ص27.

❖ أصحاب الأخدود وعام الفيل :

عن صهيب الرومي رضي الله عنه قال، قال النبي: ((كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر فلما كبر قال للملك: إني قد كبرت فابعث إلي غلاما أعلمه السحر فبعث إليه غلاما يعلمه فكان في طريقه إذا سلك راهب فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه فإذا أتى الساحر ضربه فشكا ذلك إلى الراهب فقال: إذا جئت الساحر فقل: حبسني أهلي وإذا جئت أهلك فقل: حبسني الساحر، فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب؟ فأخذ حجرا فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس فرماها فقتلها ومضى الناس، فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب: أي بني أنت اليوم أفضل مني قد بلغ من أمرك ما أرى وإنك ستبتلى فلا تدل علي، وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص ويداوي الناس من سائر الأدواء فسمع جليس للملك كان قد عمي فأتاه بهدايا كثيرة فقال: ما هاهنا أجمع لك إن أنت شفيتني قال: إني لا أشفي أحد إنما يشفي الله عز وجل فإن آمنت بالله دعوت الله فشفاك فآمن بالله فشفاه الله، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس فقال له الملك: من رد عليك بصرك؟ قال: ربي قال: ولك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام فجيء بالغلام فقال له الملك: أي بني قد بلغ من سحرك ما يبرئ الأكمه والأبرص وتفعل

وتفعل! فقال: إني لا أشفي أحدا إنما يشفي الله عز وجل، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب فجيء بالراهب فقيل له: ارجع عن دينك فأبى فدعا بالمنشار فوضع المنشار على مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه ثم جيء بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك فأبى فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل فإذا بلغتم به ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه، فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت فرجف بهم الجبل فسقطوا وجاء يمشي إلى الملك فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به فاحملوه في قرقور فتوسطوا به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه فذهبوا به فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت فانكفأت بهم السفينة فغرقوا وجاء يمشي إلى الملك فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله، فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به! قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع ثم خذ سهما من كنانتي ثم ضع السهم في كبد القوس ثم قل: بسم الله رب الغلام ثم ارم فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، فجمع الناس في صعيد واحد وصلبه على جذع ثم أخذ سهما من كنانته ثم وضع السهم في كبد القوس ثم قال: بسم الله رب الغلام ثم رماه فوقع السهم في صدغه فوضع يده في صدغه موضع السهم فمات فقال الناس: آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام

آمنا برب الغلام فأتى الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرك قد آمن الناس! فأمر بالأخدود بأفواه السكك فخدت وأضرم النيران وقال: من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها فقال لها الغلام: يا أمه اصبري فإنك على الحق)) (1).

يقول الله تبارك وتعالى ﴿وَالسَّمَاء ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ * قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (2).

✓ قصة دخول الأحباش اليمن:

وأفلت منهم رجل من سبأ يقال له: دوس ذو ثعلبان على فرس له فسلك الرمل فأعجزهم فمضى على وجهه ذلك حتى أتى قيصر ملك الروم فاستنصره على ذي نواس وجنوده وأخبره بما بلغ منهم فقال له: بعدت بلادك منا ولكن سأكتب لك إلى ملك الحبشة فإنه على هذا الدين وهو أقرب إلى بلادك وكتب إليه يأمره بنصره والطلب بثأره.

فقدم دوس على النجاشي بكتاب قيصر فبعث معه سبعين ألفا من الحبشة وأمر عليهم رجلاً منهم يقال له أرياط ومعه في جنده أبرهة الأشرم فركب أرياط البحر حتى نزل بساحل اليمن ومعه دوس ذو ثعلبان.

---

(1) (أخرجه مسلم فى الزهد والرقائق 3005).

(2) (سورة البروج: 1-8).

وسار إليه ذو نواس في حمير ومن أطاعه من قبائل اليمن فلما التقوا انهزم ذو نواس وأصحابه. فلما رأى ذو نواس ما نزل به وبقومه وجه فرسه في البحر ثم ضربه فدخل به فخاض به ضحضاح البحر حتى أفضى به إلى غمره فأدخله فيه وكان آخر العهد به. ودخل أرياط اليمن فملكها.

فقال رجل من أهل اليمن - وهو يذكر ما ساق إليهم دوس من أمر الحبشة:

لا كدوس ولا كأعلاق رحله فهي مثل باليمن إلى هذا اليوم

وقال ذو جدن الحميري:

هونك ليس يرد الدمع ما فاتا لا تهلكي أسفا في إثر من ماتا

أبعد بينون لا عين ولا أثـــــــــر وبعد سلحين يبني الناس أبياتـا

بينون وسلحين وغمدان: من حصون اليمن التي هدمها أرياط. ولم يكن في الناس مثلها، وقال عبدالله ابن الذئبة الثقفي في ذلك. قال ابن هشام: الذئبة أمه واسمه ربيعة بن عبد ياليل بن سالم بن مالك بن حطيط بن جشم بن قسي:

لعمرك ما للفتى من مفر مع الموت يلحقه والكبر

لعمرك ما للفتى صحرة لعمرك ما إن له من وزر

أبعد قبائل من حميـــــــــــر أبيدوا صباحا بذات العبر

بألف ألوف وحرابـــــــــــــة كمثل السماء قبيل المطر

يصم صياحهم المقربـــــات ويـنفون من قاتلوا بالذفر

سعالي مثل عديد التراب تيبس منهم رطاب الشجر(1)

✓ أرياط يحكم اليمن:

فأقام أرياط باليمن سنين في سلطانه ذلك ثم نازعه في أمر الحبشة باليمن أبرهة الحبشي وكان في جنده حتى تفرقت الحبشة عليهما فانحاز إلى كل واحد منهما طائفة منهم ثم سار أحدهما إلى الآخر فلما تقارب الناس ودنا بعضهم من بعض أرسل أبرهة إلى أرياط إنك لن تصنع بأن تلقي الحبشة بعضها ببعض حتى تفنيها شيئاً فابرز لي وأبرز لك فأينا ما أصاب صاحبه انصرف إليه جنده.

✓ قتال أرياط وأبرهة:

فأرسل إليه أرياط أن قد أنصفتني فاخرج فخرج إليه أبرهة وكان رجلاً قصيراً لحيماً حادراً وكان ذا دين في النصرانية وخرج إليه أرياط وكان رجلا عظيما طويلا وسيما وفي يده حربة وخلف أبرهة ربوة تمنع ظهره وفيها غلام له يقال له عتودة فلما دنا أحدهما من صاحبه رفع أرياط الحربة فضرب بها على رأس أبرهة يريد نافوخه فوقعت الحربة على جبهة أبرهة فشرمت حاجبه وعينه وأنفه وشفته فبذلك سمي أبرهة الأشرم وحمل غلام أبرهة عتودة على أرياط من خلف أبرهة فقتله وانصرف جند أرياط إلى أبرهة فاجتمعت

([1]) (ابن هشام: 1/153-154-155-156).

عليه الحبشة باليمن.

فقال عتودة في قتله أرياط:

أنا عتودة من فرقة أردة لا أب ولا أم نجده

أي يقول قتلك عبده قال فقال الأشرم عند ذلك لعتودة:

حكمك يا عتودة وإن كنت قتلته ولا ينبغي لنا ذلك إلا ديته

فقال عتودة حكمي إلا تدخل عروس من أهل اليمن على زوجها منهم حتى أصيبها قبلة

فقال ذلك لك.

❖ الخبر يصل للنجاشي وبناء كنيسة القليس:

ثم أخرج دية أرياط وكان كل ما صنع أبرهة بغير علم النجاشي ملك الحبشة فلما بلغه ذلك غضب غضباً شديداً وقال عدا على أميري فقتله بغير أمري ثم حلف إلا يدع أبرهة حتى يطأ بلاده ويجز ناصيته فلما بلغ ذلك أبرهة حلق رأسه ثم ملأ جراباً من تراب اليمن ثم بعث به إلى النجاشي وكتب إليه أيها الملك إنما كان أرياط عبدك وأنا عبدك فاختلفنا في أمرك وكل طاعته لك إلا إني كنت أقوى منه على أمر الحبشة وأضبط لها وأسوس لها وقد حلقت رأسي كله حين بلغني قسم الملك وبعثت إليه بجراب من تراب أرض اليمن ليضعه تحت قدميه فيبر قسمه.

فلما انتهى ذلك إلى النجاشي رضي عنه وكتب إليه أن اثبت على عملك بأرض اليمن

حتى يأتيك أمري فلما رأى أبرهة أن النجاشي قد رضي عنه وملكه على الحبشة وأرض اليمن بعث إلى أبي مرة بن ذي يزن فنزع منه امرأته ريحانة ابنة علقمة بن مالك بن زيد بن كهلان وأبو ريحانة ذو جدن وقد كانت ولدت لأبي مرة معد يكرب بن أبي مرة وولدت لأبرهة بعد أبي مرة مسروق بن أبرهة وبسباسة ابنة أبرهة وهرب منه أبو مرة فأقام أبرهة باليمن وغلامه عتودة يصنع باليمن ما كان أعطاه من حكمه حيناً ثم عدا على عتودة رجل من حمير أو من خثعم فقتله فلما بلغ أبرهة قتله وكان رجلاً حليماً سيداً شريفاً ورعاً في دينه من النصرانية قال قد آن لكم يا أهل اليمن أن يكون فيكم رجل حازم يأنف مما يأنف منه الرجال إني والله لو علمت حين حكمته أنه يسأل الذي سأل ما حكمته ولا أنعمته عيناً وأيم الله لا يؤخذ منكم فيه عقل ولا يتبعكم مني في قتله شيء تكرهونه.

قال ثم إن أبرهة بنى القيس بصنعاء فبنى كنيسة لم ير مثلها في زمانها بشيء من الأرض ثم كتب إلى النجاشي ملك الحبشة إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك ولست بمنته حتى أصرف إليها حاج العرب.

فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشي غضب رجل من النسأة أحد بني فقيم فخرج حتى أتى القيس فقعد فيها ثم خرج فلحق بأرضه فأخبر بذلك أبرهة فقال من صنع هذا فقيل صنعه رجل من أهل هذا البيت الذي تحج العرب إليه بمكة لما سمع من قولك أصرف إليه حاج العرب فغضب فجاء فقعد فيها أي أنها ليست لذلك بأهل فغضب

عند ذلك أبرهة وحلف ليسيرن إلى البيت فيهدمه وعند أبرهة رجال من العرب قد قدموا عليه يلتمسون فضله منهم محمد بن خزاعي بن حزابة الذكواني ثم السلمي في نفر من قومه معه أخ له يقال له قيس بن خزاعي فبينا هم عنده غشيهم عيد لأبرهة فبعث إليهم فيه بغدائه وكان يأكل الخصي فلما أتى القوم بغدائه قالوا والله لئن أكلنا هذا لا تزال تعيبنا به العرب ما بقينا فقام محمد بن خزاعي فجاء أبرهة قال أيها الملك هذا يوم عيد لنا لا نأكل فيه إلا الجنوب والأيدي فاقل له أبرهة فسنبعث إليكم ما أحببتم فإنما أكرمتكم بغدائي لمنزلتكم مني.

ثم إن أبرهة توج محمد بن خزاعي وأمره على مضر وأمره أن يسير في الناس يدعوهم إلى حج القليس كنيسته التي بناها فسار محمد بن خزاعي حتى إذا نزل ببعض أرض بني كنانة وقد بلغ أهل تهامة أمره وما جاء له بعثوا إليه رجلاً من هذيل يقال له عروة بن حياض الملاصي فرماه بسهم فقتله وكان مع محمد بن خزاعي أخوه قيس فهرب حين قتل أخوه فلحق بأبرهة فأخبره بقتله فزاد ذلك أبرهة غضباً وحنقاً وحلف ليغزون بني كنانة وليهدمن البيت.

✓ قصة أصحاب الفيل:

فتحرك أبرهة في جيش عظيم ومعه فيل ضخم اسمه محمود، فخرج له وهو في طريقه إلى مكة العرب في محاولة منهم لصده عن بيت الله الحرام، فخرج له عظيم من عظماء العرب

يقال له ذو نفر، فخرج بجيش له لمواجهة أبرهة فانتصر أبرهة وتم أسر ذي نفر، بعد ذلك خرجت خثعم لمواجهة أبرهة بقيادة نفيل الخثعمي ولكن هزمت أيضاً من أبرهة وتم أسر نفيل، فلما وصل إلى الطائف خافته الطائف وتطوعت أن ترسل معه من يدله على الكعبة فأرسلت رجلاً إسمه أبو رغال ليهديهم الطريق ولكنه مات في الطريق فأصبح مرجماً للعرب وارتبط اسمه بالخيانة بين العرب، وصل أبرهة إلى أشراف مكة وهناك بدأ جيشه يأخذون الإبل التي هي في مكة، فمن الإبل التي أخذوها مائتين من الإبل لعبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف وكان سيد مكة، فلما علم عبد المطلب أرسل رسالة إلى أبرهة يريد مقابلته ولكن أبرهة رفض، فذهب عبد المطلب إلى الأسير ذي نفر فقال له الأسير لن تستطيع على مقابلته ولكن أنا على صحبة مع سايس الفيل فمن الممكن أن يكون سبباً في مقابلتك مع أبرهة، وبالفعل تمت المقابلة، فلما رأى أبرهة عبد المطلب وكان ذا وجاهة وهيبة نزل له من عرشه وجلس معه على الأرض وقال له ما شأنك، فقال إن لي عندك إبلاً قد أخذه جيشك فأعطنيها، فغضب أبرهة وقال له لما رأيتك عظمتك وحسبت أنك جئت لأصفح عن مكة ولكنك تكلمني عن إبل؟ فقال عبدالمطلب: أنا رب الإبل أما البيت فله رب يحميه، فأمر أبرهة بإطلاق الإبل.

فلما انصرفوا عنه انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر فأمرهم بالخروج من مكة، والتحرز في شعف الجبال، والشعاب، تخوفاً عليهم من معرة الجيش، ثم قام عبد

المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده، فقال عبد المطلب وهو آخذ باب الكعبة:

لاهم إن العبد يمنـــــع رحله فامنع حلالـــــــــك

لا يغلبن صليبهـــــــــم ومحالهم غدواً محالك

إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمر ما بدا لــــــــــــــــك

ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة، وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شعف الجبال فتحرزوا فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها(1).

فبدأ أبرهة بالتقدم نحو الكعبة، فأفلت في هذا الوقت الأسير نفيل الخثعمي وذهب إلى الفيل وصاح في أنه قائلاً ابرك محمود هذا بيت الله فبرك الفيل بقدرة من يقول للشيئ كن فيكون، فبدأ السايس ومن معه يضربونه والفيل لا يتحرك فأخذوا يوجهونه نحو اليمن وغيرها فيقوم ثم يردونه إلى الكعبة فيبرك، في هذه الأثناء بدأت طيور صغيرة تحوم حول المكان وعلت جيش أبرهة وأخذت ترمي بحجارة صغيرة وهي الأبابيل تسقط على الرجل من الجيش فتحرق جلده، فبدأ الجيش يفر من كل مكان وفر أبرهة ولكن أصابته الحجارة وأصيب ولكنه مات في الطريق ومات معظم جيش أبرهة في هذه الحادثة، يقول الله تبارك وتعالى ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ *

([1]) (سيرة الرسول 51).

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ (1).

وعن أبي هريرة قال، قال رسول الله ρ: ((إن الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسول الله والمؤمنين ألا فإنها لم تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد بعدي ألا وإنها حلت لي ساعة من نهار ألا وإنها ساعتي هذه حرام لا يختلى شوكها ولا يعضد شجرها ولا يلتقط ساقطتها إلا لمنشد ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين إما أن يعقل وإما أن يقاد أهل القتيل)) (2).

فزاد حب وتعظيم الكعبة عند الناس، وكانوا يترخون بعام الفيل، فحكم اليمن بعد ذلك يختوم بن أبرهة الأشرم ثم تولى بعد ذلك مسروق بن يكسوم بن أبرهة الأشرم.

❖ قصة إساف ونائلة:

تقدم رجل من أهل اليمن اسمه إساف إلى امرأة اسمها نائلة فرفض أهلها هذا الزواج، فتواعدا في موسم الحج وفي غفلة من الناس فجر بها عند الحرم، فمسخهما الله عز وجل حجرين عبرة لمن يريد أن يعصي الله في الحرم، وفي عهد عمرو بن لحي بدأ علماء هذه الرواية يختفون بعض الشيء، فلما عبدت الأصنام عبد معهم هذين الصنمين فهم كانوا من أعجب الأصنام.

---

(1) (سورة الفيل).

(2) (أخرجه أحمد فى المسند 7241 وأبو داوود 1776 وقال شعيب الأرنؤوط: إسناداه صحيحان الأول على شرط الشيخين والثاني على شرط مسلم رجاله ثقات رجال الشيخين غير أبي داود فمن رجال مسلم).

قال ابن إسحاق: ويزعمون أن أول ما كانت عبادة الحجارة في بني إسماعيل أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم حين ضاقت عليهم والتمسوا الفسح في البلاد إلا حمل معه حجرا من حجارة الحرم تعظيما للحرم فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة حتى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم حتى خلف الخلوف ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلالات وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم يتمسكون بها من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفة والمزدلفة وهدي البدن والإهلال بالحج والعمرة مع إدخالهم فيه ما ليس منه.

❖ سيف بن ذي يزن :

جاء رجل من أهل اليمن اسمه سيف بن زي يزن وأراد أن يحدث انقلاباً على الأحباش في اليمن، فذهب للشام لمقابلة قيصر فحدثه بهمه، فلم يلق قيصر له بالاً وهذا بسبب أن قيصراً والأحباش على النصرانية، فهداه عقله إلى النعمان بن المنذر فقابله وحدثه بهمه فقال له النعمان ليس لي طاقة بالأحباش ولكني مسافر إلى كسرى فسافر معي وأخبره خبرك فقال نعم الرأي، فذهبا الرجلان إلى كسرى وكان لكسرى عرش عظيم وعليه تاج وزنه تسعون كيلو جراماً من الذهب الخالص وكان يعلق تعليقاً فلما فتح الساتر عن كسرا كان منظراً مهيباً له وكان أهل فارس يعبدون كسرا يقولون عنه الرب كسرا فسجد

كل من كان في القصر لكسرى إلا سيف بن ذي يزن فقط طأطأ رأسه فغضب كسرا غضب شديد وقال من هذا الأحمق الذي لم يسجد لي فقال سيف بن زي يزن إنما ما سجدت لك من همي قال وما همك، فحدثه بهمه فقال كسرى ومالى واليمن ليس لي فيها شأن، ثم إنه أعطى سيف بن ذي يزن عشرة آلاف درهم فضة فأخذ الرجل الدراهم وخرج من القصر وبدأ يلقي الدراهم على الأرض وبدأ الناس يتقاتلون على الدراهم فعلم كسرا فقال ردوه علي، فلما ردوه قال ما حملك على فعل هذا، فقال سيف بن زي يزن لا أريد من الذهب والفضة وقد جئتك من أرض جبالها الذهب والفضة، يريد أن يجعله يطمع في اليمن، فاجتمع كسرى مع وزرائه وقال ما عهدنا أن في الجزيرة ذهب وفضة فما الخبر، فأشار عليه وزرائه بأنه في السجن رجال قد أعددتهم للقتل فأرسلهم إلى اليمن مع سيف بن زي يزن ليحاربوا الأحباش فإن انتصروا فقد فتحت اليمن بغير حساب وإن هزموا وقتلوا فهذا ما أردت، قال كسرى قد أشرتم بالرأي، وبالفعل تحرك جيش السجناء إلى اليمن بقيادة بترس وخرجوا في ثمانية سفن من الفرس إلى اليمن، فانطلقوا من الفرات إلى الخليج العربي ثم إلى بحر العرب حتى وصلوا لعدن، فجمع سيف بن ذي يزن أهل اليمن مع جيش الفرس وبدأ القتال مع جيش الحبشة وكان يقودهم مسروق بن يكسوم بن أبرهة، وكان بترس قائد الفرس شديد البنيان حتى يقولون أن كان عنده نبل لا أحد يستطيع حمله غيره، وكان يراقب المعركة، فسأل عن ملك الحبشة فدله سيف بن ذي

يزن أنه هو الذي في الديباج الذي يركب الفيل وبين عينيه ياقوتة حمراء. قال: نعم، اتركوه حتى يتحول عن الفيل، فقالوا له: قد نزل عن الفيل وهو الآن على فرس. قال: اتركوه حتى يتحول عن الفرس. فقالوا له: قد نزل عن الفرس وهو الآن على بغل. قال: بنت الحمار، ذل وذل ملكه، فشد عليه نبله فدخلت من الياقوتة وخرجت من رأسه. فسيطر جيش الفرس وانهزم جيش الحبشة، فلم يعطوا الملك لسيف ابن زي يزن، فحم اليمن وهرز فلما مات حكم ابنه المرزبان ابن وهرز فلما مات حكم ابنه التينجان فلما مات حكم ابنه على اليمن فعزله كسرى وجعل حكم اليمن لباذان فظل باذان على الحكم حتى جاء الإسلام ثم أسلم وأسلم معه الفرس في اليمن فعادت اليمن في حكم المسلمين كما سيأتي.

❖ عمرو بن كلثوم و عمرو بن هند:

قصة معلقة عمرو ابن كلثوم ، والتي تناقلها العرب على ألسنة بعضهم البعض وهذه الرواية هي : سأل عمرو ابن هند ملك الحيرة في مجلسه ، هل تعرفون أحدا في مملكتي أمه تأنف أن تخدم أمي ؟! فردوا عليه اصحابه : نعم إنها أم عمرو ابن كلثوم فهي بنت سالم ابي ليلى المهلهل ، وعمها كليب ملك العرب وزجها كلثوم ابن مالك ، فسكت عمرو ابن هند على ما في نفسه ، وبعد ذلك قام بدعوة عمرو ابن كلثوم وأمه هند بنت المهلهل إلى قصره ، وحينما أتوا جلسوا على المائدة ، فجلست هند بنت المهلهل أم عمرو ابن كلثوم إلى مائدة هند أم عمرو بنت الحارث بن حجر . وجلس العمران على مائدتهم ، وأثناء تناولهم الطعام

، طلبت هند بنت الحارث من هند بنت المهلهل أم عمرو ابن كلثوم أن تقرّب لها طبقا ما ، فصرخت ام عمرو ابن كلثوم " واه ذلاه آل تغلب " سمعها ابنها عمرو ابن كلثوم فقام وامتشق سيفه وقتل به عمرو ابن هند قائلا معلقته الشهيرة:

أَلاَ هُبِّي بِصَحْنِكِ فَاصْبَحِيْنَـا=وَلاَ تُبْقِي خُمُوْرَ الأَنْدَرِيْنَـا

ألا.. لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

بأي مشيئة عمرو بن هند نكون لقيلكم فيها قطينا

بأي مشيئة عمرو بن هند تطيعُ بنا الوشاة وتزدرينا

تهـدَّدْنا وتوعدنا رويـدا متى كـنا لأمك مقتوينا

فـإن قناتنا يا عمـرو أعيت على الأعـداء قبلك أن تلينا

ورثنا مجد علقمةَ بن سيف أباح لنا حصون المجد دينا

ومنّا قبله الساعي كَليب فأي المجـد إلا قد ولينا

ونحن الحاكمون إذا أُطعنا ونحن الآخـدون لما رضينا

كأنا والسـيوف مسلّلاتٌ ولدنا الناس طُراًّ أجمعينا

ونشرب إن وردنا الماء صفواً ويشرب غيرنا كدراً وطينا

إذا ما المَلْكُ سام الناس خسفاً أبينا أن نقـرَّ الذلَّ فينا

لنا الدنيا ومـن أمسـى عليهـا ونبطش حين نبطش قادرينا

بغـاة ظـالمين ومـا ظـلمنا ولكــن ســنبدأ أظالميــنا

مـلأنا البرَّ حتى ضـاق عــــنا ونحـن البحــر نملأه سفينا

إذا بلغ الفطـامَ لنا صَـــبيٌ تَخـرُّ لـه الجــبابرُ ساجدينا[1]

❖ الشنفرى :

الشنفرى يمني الأصل من بني أواس من الأزد، وهو شاعر صعلوك من العدّائين الفُتّاك الرِّجِّيلين ، كان يضرب به المثل في سرعة الركض ومدى القفز، قيل كانت الخيل لا تلحقه، وقيل قيست نزوة (قفزة) من نزواته فوجدت واحدة وعشرين خطوة (ثمانية أمتار ونصف المتر). وكان الشنفرى يغزو على رجليه وحده أو في نفر قليلين من الصعاليك العدّائين الفتّاك أمثاله كقريبه تأبّط شرّا ثم عامر بن الأخنس وعمرو بن برّاق ورجل اسمه المسيّب وأسد بن جابر، وكذلك كان يضرب المثل به في الحذق والدهاء.

ويبدو أن الشنفرى وقع في أسر بني سلامان بن مفرج من بني فهم (من قيس عيلان من عرب الشمال)، أسره أسد بن جابر، وهو صغير، فنشأ فيهم كأنه واحد منهم، ثم انه عرف حقيقة أمره في حديث طويل، وقد قيل إنه أقسم أن يقتل مائة من بني فهم لأنهم

---

[1] ديوان عمرو بن كلثوم، اميل بديع يعقوب، دار الكتّاب العربي، ط1، 1991، ص64.

أسروه واستعبدوه وكتموا عنه حقيقة نسبه، فقتل منهم تسعة وتسعين ثم قتل. فمر به رجل منهم فرفس جثّته برجله احتقارا له، فقيل أن شظيّة من عظام الشنفرى المتناثرة دخلت رجل الرجل الفهمي فمات متأثرا بالجرح الذي أحدثه، فتم بذلك مائة قتيل من بني فهم.[1]

❖ تأبط شرا :

هو ثابت بن جابر بن سفيان بن عميثل بن عدي بن كعب بن حزن، وقيل: حرب بن تميم بن سعد بن فهم بن عمرو بن قيس عيلان بن مضر بن نزار. بعض المصادر تذكر أنه من قبيلة بني فهم العدنانية والتي لا تزال موجودة إلى الآن بأرض الحجاز، وأمه امرأة يقال لها: أميمة، يقال: إنها من بني القين بطن من فهم ولدت خمسة : تأبط شراً، وريش بلغب، وريش نسر، وكعب جدر، ولا بواكي له وقيل: إنها ولدت سادساً اسمه عمرو. وتأبط شراً لقب لقب به، ذكر الرواة أنه كان رأى كبشاً في الصحراء فاحتمله تحت إبطه فجعل يبول عليه طول طريقه، فلما قرب من الحي ثقل عليه الكبش فلم يقله فرمى به فإذا هو الغول فقال له قومه: ما تأبطت يا ثابت؟ قال: الغول، قالوا: لقد تأبطت شراً فسمي بذلك. وقيل: بل قالت له أمه: كل إخوتك يأتيني بشيء إذا راح غيرك فقال لها: سآتيك الليلة بشيء، ومضى فصاد أفاعي كثيرة من أكبر ما قدر عليه فلما راح أتى بهن في جراب متأبطاً له

[1] تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، ج1، ص102-105.

فألقاه بين يديها ففتحته فتساعين في بيتها فوثبت، وخرجت فقال لها نساء الحي: ماذا أتاك به ثابت؟ فقالت: أتاني بأفاع في جراب قلن: وكيف حملها؟ قالت: تأبطها، قلن: لقد تأبط شراً فلزمه تأبط شراً. وقيل لقب بتأبط شرا لأنه كان كلما خرج للغزو وضع سيفه تحت أبطه فقالت أمه مرة: تأبط شرا، فلقب بهذا اللقب. وكان أحد العدائين المعدودين ،أخبر الحزنبل عن عمرو بن أبي عمرو الشيباني قال: نزلت على حي من فهم إخوة بني عدوان من قيس فسألتهم عن خبر تأبط شراً فقال لي بعضهم: وما سؤالك عنه، أتريد أن تكون لصاً؟ قلت: لا، ولكن أريد أن أعرف أخبار هؤلاء العدائين، فأتحدث بها، فقالوا: نحدثك بخبره: إن تأبط شراً كان أعدى ذي رجلين وذي ساقين وذي عينين وكان إذا جاع لم تقم له قائمة فكان ينظر إلى الظباء فينتقي على نظره أسمنها، ثم يجري خلفه فلا يفوته حتى يأخذه فيذبحه بسيفه ثم يشويه فيأكله.

ومما روته كتب التاريخ عنه، أنه خارق القوة، فان اتكأ على بعير أسقطه، أو استوى على ظهر فرس أجهدها، وهو أسرع من الجياد الجامحة، ويسبق الظبي في عدوه، وإن رمى رمحه، فإنه كريح الشتاء، ورغم أن له الكثير من الحكايات الخرافية مع الجان والغيلان، إلا أن الذين وصفوه، يرون أنه هو الغول بعينه، فضفيرتاه تشبهان قرني الشيطان، وله عينان حمراوتان، تنبعث منهما أشعة كريهة تنذر الناظر إليهما بالموت، وفمه كفوهة بئر، أما أنفه فإنه يشبه رأس البعير. مع هذه الأوصاف وغيرها من أمارات القبح، فإن (تأبط شرا

يعد واحدا ممن يعشقنه النساء، كما تجلى ذلك واضحا في أشعاره .نادته أمه يوما، وقالت له: «أيها الولد العاق، ها أنت ترى ما نحن فيه من شظف العيش، وأنت لا هم لك إلا أن تسابق الغزلان، لم لا تنطق أيها الخبيث؟!»، فيجيبها: «وماذا تريدين أن أفعل، بعد أن جئت لك بكبش سمين، فإذا به ينقلب بين يديك إلى ذئب مفترس؟! وسرقت لك ما يزن حمل بعير من التمر، فانقلب التمر حين رأى وجهك الى أفاع سامة!! فماذا أفعل لك بعد ذلك يا امرأة؟!»، لكنها لا تعبأ بما قال وتصرخ فيه: «اسمع أيها الجلف، إن في فلاة رحى بطان من أرض هذيل، إبلا ترعى، فلو تربصت ببعضها ليلا» فيصيح فيها مقاطعا: «أنتِ إذاً تريدين لابنك أن يسرق أموال الناس؟!»، فتجيبه ساخرة: «ثكلتك أمك، وهل لك صنعة أخرى غير السرقة التي ورثتها عن أبيك؟!»، فيجيبها: «واللات ما أسموك أم الأشرار عبثا!! وبئس الأم أنت يا من تحرضين ولدك على فعل الشر!!»، فتقول له: «لا تجادلني، وأنت لا عمل لك سوى مجالسة السراق كأبي خراش والشنفري، هيا اذهب يا تأبط الى رحى بطان، وعد لأمك بلبن النياق».

عندما شارف تأبط شرا على منطقة رحى بطان، وضع أذنه على الأرض، كي يسمع وقع أقدام النوق، ولكنه سمع ما لم يكن يتوقع، فصار من شدة هول الدهشة، يحدث نفسه: «ما هذا؟! ما هذه الأقدام الثقيلة الوقع، كأنها جبل يسير، وصوت أقدامه يأتيني عبر

الرمال، مع ما يفصل بيننا بمسافة تبلغ عشرات الفراسخ؟! أي مخلوق هذا الذي يسير بهذه القوة؟»،

وفجأة يظهر له من بين العجاج كائن بشع المنظر، ضخم الجثة، فيصيبه الارتباك، وإذا بذلك الكائن يصدر صوتا أنثويا رقيقا: «اقترب مني يا حبيبي..!! اقترب..!! فبعد قليل ستصبح زوجي»، فيرد عليها تأبط بعد أن تمكن من السيطرة على أعصابه: «واللات إن ما سمعته عن خبث الغيلان لهو حقيقة واقعة.. إنك تخدعين الرجال بهذا الصوت الوديع»! واذا بالكائن البشع يتحدث اليه بصوت غليظ كأنه الرعد: «ما دمت قد عرفت حقيقتي، فماذا جاء بك الى هنا يا تأبط؟ وكيف سولت لك نفسك أن تعتدي على أرضي؟»، فلم يجد تأبط شرا عذرا سوى القول أنه مر فوق هذه الأراضي عن طريق المصادفة، فتصدر عن الكائن البشع ضحكة جلجلت أصداؤها في الفضاء، ثم يعقبها قوله: « كذبت..!! بل قل إن أمك هي التي طلبت إليك أن تأتي إلى هنا لتسرق إبل قيس عيلان، ولكنها دفعت ثمن تحريضها إياك على السرقة، ثم استخرجت جثة أمه من وعاء، وألقت بها أمامه، ها هي أم الاشرار جثة هامدة أمامك..!! فيصرخ تأبط باكيا: «ويحك قتلت أمي أيتها الغولة، فتهجم عليه قائلة: وسأمزقك بأنيابي يا تأبط، فيشتبك معها بعد أن تقمصه قوته الخارقة التي كثيرا ما يستدعيها عندما يتعرض لمعارك مع الجن والغيلان، وبينما كانت الغولة تصدر ضحكاتها، عاجلها تأبط بكسر أنيابها، فقالت له وهي في قمة حنقها وغضبها: «ستكون هذه آخر ليلة

من ليالي حياتك، سأمزقك إربا إربا أيها التأبط اللعين»، فيجيبها وهو يكمل تكسير أنيابها:

«بل أنا الذي سأسلخ جلدك النتن وأصنع منه أكبر خيمة في بلاد العرب، لأذل بك قبيلة الغيلان أيتها الخبيثة»!! فأجهز عليها، ثم حملها إلى قبيلته منشدا هذه الأبيات:

ألا من مبلغ فتيان فهم بما لقيت عند رحى بطان

بأني قد لقيت الغول تهوى بسهب كالصحيفة صحصحان

فأضربها بلا دهش فخرّت صريعا لليدين وللجران

فلم انفك متكئا عليها لأنظر مصبحا ماذا أتاني

اذا عينان في رأس قبيح كرأس الهر مشقوق اللسان

❖ ابن جدعان :

هو عبدالله بن جدعان بن كعب وهو ابن عم والد أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - وكان من الحكماء الأجواد في الجاهلية المطعمين المغيثين.

وكان في بدأ أمره فقيراً مملقاً وكان شريراً وكان يكثر من الجنايات حتى أبغضه قومه وعشيرته وأهله وقبيلته وأبغضوه حتى أبوه.

فخرج ذات يوم في شعاب مكة حائراً بائراً فرأى شقاً في جبل فظن أن يكون به شيئاً يؤذيه فقصده لعله يموت فيستريح مما هو فيه ، فلما اقترب منه إذا ثعبان يخرج إليه ويثب عليه فجعل يحيد عنه ويثب فلا يعني شيئا (أي أن الثعبان لم يحرك ساكنا) فلما دنا منه إذا هو من ذهب وله عينان هما ياقوتتان فكسره وأخذه ودخل الغار فإذا فيه قبور لرجال من ملوك جرهم ومنهم الحارث من مضاض الذي طالت غيبته فلا يُدرى اين ذهب ! ووجد عند رؤوسهم لوحاً من ذهب فيه تاريخ وفاتهم ومدة ولايتهم وإذا عندهم من الجواهر واللآلئ والذهب والفضة الشيء الكثير فأخذ منه حاجته ثم خرج وعلّم (أي وسم باب الغار حتى يعرفه إذا رجع إليه) باب الغار ثم انصرف إلى قومه فأعطاهم حتى أحبوه وسادهم وجهل يطعم الناس وكلما قا ما في يده ذهب إلى ذلك الغار فأخذ حاجته ثم رجع وكان يطعم التمر والسويق ويسقي اللبن حتى سمع قول أمية بن أبي الصلت:

ولقد رأيت الفاعلين وفعلهم فرأيت أكرمهم بني الديان

البر يلبلك بالشهاد طعامهم لا ما يعللنا بنو جدعـــــان

فأرسل ابن جدعان إلى الشام ألفي بعير تحمل البر والشهد والسمن وجعل منادياً ينادي كل ليلة على ظهر الكعبة أن هلموا إلى جفنة ابن جدعان ... فقال أمية بن ابي الصلت:

وأبيض من بني تيم بن كعب ... وهم كالمشرفيات الفراد

له داع بمكة مشمعل ... وآخر فوق دارته ينادي

إلى ردح من الشيزاء فيها ... لباب البر يلبك بالشهاد

لكل قبيلة ثبج وصلب ... وأنت الرأس تقدم كل هادي

الفصل الثاني : الأيام و الملاحم.

أيام العرب :

❖ داحس و الخبراء :

يُذكر في سبب حرب داحس والغبراء أنّ فرساً غلب فرساً آخر في سباق الجري، حيث بدأ سباق ورهان بين الفرسين؛ داحس والغبراء، وأجرى هذا السباق سيدا عبس وذبيان؛ وهما: قيس بن زهير، وحذيفة بن بدر، وكان من المتوقع أن يكون الفوز حليف داحس، ولكنّ رجلاً من ذبيان وضع لداحس كميناً ونفّره، ممّا جعله يعدل عن طريق الفوز، فساعد ذلك فرس الغبراء بالفوز في السباق، ونتيجةً لذلك رفض قيس الاعتراف بهذا السباق، وطلب الرهان المضروب[1]، وذشب صدام بين الفريقين، وبالتالي بدأت هذه الحرب الطويلة بينهما، وسُميت باسم هذين الفرسين.

❖ حرب البسوس :

لما فض كليب بن ربيعة – اسمه وائل وكليب لقبه ، ولد سنة 440 م ، ونشأ في حجر أبيه ، ودرب على الحرب ، ثم تولى رئاسة الجيش : بكر وتغلب زمناً حتى قتله جساس بن مرة

[1] أيام العرب في الجاهلية، محمد أحمد جاد المولى بك، ط1، 1942، ص253.

سنة 494 م - جموع اليمن في خزاز وهزمهم اجتمعت عليه معد كلها ، وجعلوا له قسم الملك وتاجه وطاعته ، وغبر بذلك حيناً من دهره ، ثم دخله زهو شديد ، وبغى على قومه لما هو فيه من عزة وانقياد معدّ له ، حتى بلغ من بغيه ، أنه كان يحمي مواقع السحاب فلا يرعى حماه[1] ، وإذا جلس لا يمر أحد بين يديه إجلالاً له ، لا يختبئ أحد في مجلسه غيره ، ولا يغير إلا بإذنه ، ولا تورد إبل أحد ، ولا توقد مع ناره ، ولم يكن بكرى ولا تغلبي يجير رجلا ولا بعيراً أو يحمى إلا بأمره.

وكان يجير على الدهر فلا تخفر ذمته ، وكان يقول : وحش أرض في جواري ، فلا يهاج ! وكان هو الذي ينزل القوم منازلهم ويرحلهم ، ولا ينزلون ولا يرحلون إلا بأمره ، وقد بلغ من عزته وبغيه أنه اتخذ جرو كلب ، فكان إذا نزل به كلأ قذف ذلك الجر وفيه فيعوى ، فلا يرعى أحد ذلك الكلأ إلا بإذنه ، وكان يفعل هذا بحياض الماء فلا يردها أحد إلا بإذنه أو من آذن بحرب ، فضرب به المثل في العز فقيل : أعز من كليب وائل ، وكان يحمى الصيد فيقول : صيد ناحية كذا وكذا في جواري فلا يصيد أحد منه شيئاً.

وتزوج كليب جليلة بنت مرة بن ذهل بن شيبان، وكان لمرة عشرين بنين جساس أصغرهم ، وكانت بنو جشم ، وبنو شيبان تقيم في دار واحدة إرادة الجماعة ومخافة الفرقة. وحدث أن كليباً دخل على امرأته جليلة يوماً فقال لها: هل تعلمين على الأرض أمنع مني ذمة ؟ فسكتت، ثم أعاد عليها الثانية فسكتت، ثم أعاد عليها الثالثة فقالت: نعم، أخي

---

[1] أيام العرب في الجاهلية، محمد أحمد جاد المولى بك، ط1، 1942، ص142.

جساس – وهو جساس بن مرة ، كان فارساً شهماً أبياً ، وكان يلقب الحامي الجار ، المانع الذمار ، وهو الذي قتل كليباً ، مات سنة 534 م - وندمانه، ابن عمه عمرة المزدلف بن أبي ربيعة بن ذهل ابن شيبان.فسكت كليب ، ومضت مدة ، وبينما هي تغسل رأسه وتسرحه ذات يوم إذ قال لها : من أعز وائل ؟ قالت: أخواي جساس وهمام. فنزع رأسه من يدها وخرج[1].

وكانت لجساس خالة اسمها البسوس بنت منقذ، جاءت ونزلت على ابن أختها جساس، فكانت جارة لبنى مرة، ولها ناقة خوارة، ومعها فصيل لها، فلما خرج كليب غاضباً من قول زوجه جليلة رأى فصيل الناقة فرماه بقوسه فقتله. وعلمت بنو مرة بذلك، فأغمضوا على ما فيه وسكتوا، ثم لقي كليب ابن البسوس فقال له: ما فعل فصيل ناقتكم ؟ فقال: قتلته وأخليت لنا لبن أمه، وأغمضت بنو مرة على هذا أيضاً.

ثم أن كليباً أعاد القول على امرأته فقال: من أعز وائل ؟ فقالت: أخواي ! فأضمرها في نفسه وأسرها وسكت، حتى مرت به إبل جساس وفيها ناقة البسوس، فأنكر الناقة، ثم قال: ما هذه الناقة ؟ قالوا: لخالة جساس. فقال: أو بلغ من أمر ابن السعدية – أي جساس - أن يجير عليّ بغير إذني ؟ ارم ضرعها يا غلام، فأخذ القوس ورمى ضرع الناقة، فاختلط دمها بلبنها.

[1] أيام العرب في الجاهلية، محمد أحمد جاد المولى بك، ط1، 1942، ص144.

وراحت الرعاة على جساس فأخبروه بالأمر، وولت الناقة ولها عجيج حتى بركت بفناء البسوس، فلما رأتها صاحت: واذلاه ! فقال لها جساس: اسكتي فلك بناقتك ناقة أعظم منها، فأبت أن ترضى حتى صاروا لها إلى عشر، فلما كان الليل أنشأت تقول - بخطاب سعداً أخا جساس وترفع صوتها تسمع جساساً[1]:

يا أبا سعد لا تغرر بنفسك وارتحل.. فإني في قوم عن الجار أموات

ودونك أذوادي إليك فإنني.. محاذرة أن يغدروا ببنياتي

لعمرك لو أصبحت في دار منقذ..لما ضم سعد وهو جار لأبياتي

ولكنني أصبحت في دار معشر..متى يعد فيها الذئب يعدو وعلى شاتي[2]

فلما سمعها جساس قال لها: اسكتي لا تراعي: إني سأقتل جملاً أعظم من هذه الناقة، سأقتل غلالاً - وهو فحل إبل كليب لم ير في زمانه مثله، وإنما أراد جساس بمقالته كليباً.-

ثم ظعن ابنا وائل بعد ذلك، فمرت بكر على نهى - أي غدير - يقال له شبيث ، فنفاه، كليب عنه وقال : لا يذوقون منه قطرة ، ثم مروا على نهى آخر يقال له الأحص ، فنفاهم عنه وقال : لا يذوقون منه قطرة ، ثم مروا على بطن الجريب - واد عظيم - فمنعهم إياه ، فمضوا حتى نزلوا الذنائب ، واتّبعهم كليب وحيه حتى نزلوا عليه ، فمر عليه جساس ومعه ابن عمه عمرو بن الحارث بن ذهل ، وهو واقف على غدير الذنائب ، فقال له :

---

[1] الدين و الأسطورة عند العرب في الجاهلية، محمد الخطيب، ط 2004،ص 158.

[2] أيام العرب في الجاهلية، محمد أحمد جاد المولى بك، ط1، 1942، ص145.

طردت أهلنا عن المياه حتى كدت تقتلهم عطشا ! فقال كليب : ما منعناهم من ماء إلا ونحن له شاغلون. فقال له : هذا كفعلك بناقة خالتي ، فقال له : أوقد ذكرتها أما إني لو وجدتها في غير إبل مرة لا ستحللت تلك الإبل بها ، أتراك مانعي أن أذب عن حماي ، فعطف عليه جساس فرسه فطعنه برمح فأنفذ حضني – الحضن ما دون الإبط إلى الكشح. -

فلما تداهمه الموت قال: يا جساس ، اسقني من الماء. فقال : ما علقت استسقاءك الماء منذ ولدتك أمك إلا ساعتك هذه. فالتفت إلى عمرو وقال له: يا عمرو ، أغثني بشربة ماء ، فنزل إليه وأجهز عليه.[1]

وأمال جساس يده بالفرس حتى انتهى إلى أهله على فرسه يركضه ، وقد بدت ركبتاه ، ولما رأته أخته قالت لأبيها : إن ذا لجساس آتى كاشفاً ركبتاه ، فقال : والله ما خرجت ركبتاه إلا لأمر عظيم.

فلما جاء جساس قال له : ما وراءك يا بني ؟ قال : ورائي أني قد طعنت طعنة لتشغلن بها شيوخ وائل زمنا. قال: وماهي ؟ لأمك الويل أقتلت كليبا؟ فقال : نعم ، فقال أبوه : إذن نسلمك بجريرتك ، ونريق دمك في صلاح العشيرة ، والله لبئس ما فعلت ! فرقت جماعتك، وأطلت حربها ، وقتلت سيدها في شارف من الإبل ، والله لا تجتمع وائل

---

[1] أيام العرب في الجاهلية، محمد أحمد جاد المولى بك، ط1، 1942، ص146.

بعدها ، ولا يقوم لها عماد في العرب ، ولقد وددت أنك وإخوتك كنتم متم قبل هذا ، ما بي إلا أن تتشاءم بي أبناء وائل ، فأقبل قوم مرة عليه وقالوا : لا تقل هذا ولا نفعل فيخذلوه وإياك ، فأمسك مرة.

ولما قتل كليب اجتمع نساء الحي للمأتم، فقلن لأخت كليب: رحلي جليلة من مأتمك ، فإن قيامها فيه شماتة وعار علينا عند العرب ، فقالت لها : يا هذه ، اخرجي عن مأتمنا ، فأنت أخت واترنا وشقيقة قاتلنا ، فخرجت وهي تجر أعطافها ، فقالت لها أخت كليب : رحلة المعتدي وفراق الشامت ، ويل غداً لآل مرة ، من السكرة بعد السكرة، فبلغ قولها جليلة فقالت : وكيف تشمت الحرة بهتك سترها ، وترقب وترها ،أسعد الله جد أختي ، أفلا قالت : نفر الحياء ، وخوف الاعتداء.

ولما ذهبت إلى أبيها مرة قال لها: ما وراءك يا جليلة ؟ فقالت: ثكل العدد وحزن الأبد ، وفقد حليل ، وقتل أخ عن قليل ، وبين ذين غرس الأحقاد ، وتفتت الأكباد ، فقال لها : أو يكف ذلك كرم الصفح وإغلاء الديات ؟ فقالت: أمنية مخدوع ورب الكعبة أبا لبدن تدع لك تغلب دم ربها.

وكان همام بن مرة ينادم المهلهل أخا كليب وعاقده ألا يكتمه شيئاً. فلما ظعن مره بأهله أرسل إلى ابنه همام فرسه مع جارية ، وأمره أن يظعن ويلحق بقومه. وكانا جالسين، فمر جساس يركض به فرسه مخرجاً فخذيه، فقال همام : إن له لأمراً ، والله ما رأيته كاشفاً

بخذيه قط في ركض ، ولم يلبث إلا قليلاً حتى انتهت الجارية إليها ، وهما معتزلان في جانب الحي. فوثب همام إليها، فسارته أن جساساً قتل كليباً، وأن أباه قد ظعن مع قومه، فأخذ همام الفرس وربطه إلى خيمته ورجع ، فقال له المهلهل : ما شأن الجارية والفرس ؟ وما بالك ؟ فقال: اشرب ودع عنك الباطل، قال: وما ذاك ؟ فقال: زعمت أن جساساً قتل كليباً، فضحك المهلهل، وقال: همة أخيك أضعف من ذلك، فسكت. ثم أقبلا على شرابهما ، فجعل مهلهل يشرب شرب الآمن ، وهمام يشرب شرف الخائف ، ولم تلبث الخمر أن صرعت مهلهلا ، فانسل همام وأتى قومه من بنى شيبان ، وقد قوضوا الخيام ، وجمعوا الخيل والنعم ، ورحلوا حتى نزلوا بما يقال له النهى.

ورجع المهلهل إلى الحي سكران ، فرآهم يعقرون خيولهم ، ويكسرون رماحهم وسيوفهم ، فقال : ويحكم ما الذي دهاكم ؟ فلما أخبروه الخبر قال : لقد ذهبتم شر مذهب ، أتعقرون خيولكم حين احتجتم إليها ؟ وتكسرون سلاحكم حين افتقرتم إليه. فانتهوا عن ذلك، ورجع إلى النساء فنهاهن عن البكاء وقال: استبقين للبكاء عيوناً تبكى إلى آخر الأبد.

ولما أصبح غدا إلى أخيه فدفنه، وقام على قبره يرثيه ، وما زال المهلهل يبكي أخاه ويندبه ، ويرثيه بالأشعار ، وهو يجتزئ بالوعيد لبنى مرة ، حتى يئس قومه ، وقالوا : إنه زير نساء ، وسخرت منه بكر ، وهمت بنو مرة بالرجوع إلى الحمى ، وبلغ ذلك المهلهل فانتبه للحرب ، وشمر ذراعيه ، وجمع أطراف قومه ، ثم جز شعره ، وقصر ثوبه ، وآلى على نفسه ألا يهتم

بلهو ولا يشم طيباً ، ولا يشرب خمراً ، ولا يدهن بدهن حتى يقتل بكل عضو من كليب رجلاً من بنى بكر بن وائل.

وحث بنى تغلب على الأخذ بالثأر ، فقال له أكابر قومه : إننا نرى ألا تعجل بالحرب حتى نعذز إلى إخواننا ، فبالله ما تجدع بحرب قومك إلا أنفك ، ولا تقطع إلا كفك ! فقال: جدعه الله أنفاً ، وقطعها كفاً ، والله لا تحدثت نساء تغلب أني أكلت لكليب ثمناً ولا أخذت له دية ، فقالوا : لا بد أن تغض طرفك وتخفض جناحك لنا ولهم ، فكره المهلهل أن يخالفهم فينفضوا من حوله ، فقال: دونكم ما أردتم.

وانطلق رهط من أشرافهم وذوي أسنانهم حتى أتوا مرة بن ذهل فعظموا ما بينهم وبينه، وقالوا له: إنكم أتيتم أمراً عظيماً بقتلكم كليباً بناب من الإبل، وقطعتم الرحم، ونحن نكره العجلة عليكم دون الإعذار، وإننا نعرض عليكم إحدى ثلاث، لكم فيها مخرج ولنا مرضاة. إما أن تدفعوا إلينا جساساً فنقتله بصاحبنا، فلم يظلم من قتل قاتله ، وإما أن تدفعوا إلينا هماماً فإنه ند لكليب ، وإما أن تقيدنا من نفسك يا مرة ، فإن فيك رضا القوم.

فسكت وقد حضرته وجوه بنى بكر بن وائل فقالوا: تكلم غير مخذول ، فقال: أما جساس فغلام حديث السن ركب رأسه ، فهرب حين خاف ، فوالله ما أدري أي البلاد انطوت عليه . وأما همام فأبو عشرة وأخو عشرة، ولو دفعته إليكم لصيح بنوه في وجهي وقالوا: دفعت أبانا للقتل بجريرة غيره. وأما أنا فلا أتعجل الموت ، وهل تزيد الخيل على أن تجول

جولة فأكون أول قتيل ! لكن هل لكم في غير ذلك ؟ هؤلاء بنيّ فدونكم أحدهم فاقتلوه ، وإن شئتم فلكم ألف ناقة تضمنها لكم بكر بن وائل. فغضبوا وقالوا : إنا لم نأتك لترذل لنا بنيك ، ولا لتسومنا اللبن. ورجعوا فأخبروا المهلهل، فقال: والله ما كان كليب بجزور نأكل له ثمناً.

واعتزلت قبائل من بكر الحرب ، وكرهوا مساعدة بني شيبان ومجامعتهم على قتال إخوتهم ، وأعظموا قتل جساس كليباً بناب من الإبل ، فظعنت عجل عنهم ، وكفت يشكر على نصرتهم ، ودعت تغلب النمر من قاسط فانضمت إليها ، وصاروا يداً معهم على بكر ، ولحقت بهم عقيل بنت ساقط.

وكان الحارث بن عباد بن ضبيعة من قيس بن ثعلبة من حكام بكر وفرسانها المعدودين، فلما علم بمقتل كليب أعظمه ، واعتزل بأهله وولد إخوته وأقاربه ، وحل وتر قوسه ، ونزع سنان رمحه.

ووقعت الحرب بين الحيين، وكانت وقعات مزاحفات يتخللها مغاورات، وكان الرجل يلقى الرجل والرجلان والرجلين هكذا ، وأول وقعة كانت على ماء لهم يقال له النهى كان بنو شيبان نازلين عليه ، ورئيس تغلب المهلهل ورئيس شيبان الحارث بن مرة فكانت الدائرة لتغلب ، وكانت الشوكة في شيبان ، واستحر القتال فيهم ، إلا أنه لم يقتل ذلك اليوم أحد من بني مرة.

ثم التقوا بالذنائب فظفرت بنو تغلب ، وقتلت بكر مقتلة عظيمة ، ثم التقوا بواردات فظفرت بنو تغلب ، وكان جساس بن مرة وغيره طلائع قومهم وأبو نويرة التغلبي طلائع قومهم أيضاً ، فالتقوا بعض الليالي فقال له أبو نويرة : اختر إما الصراع أو الطعان ، أو المسايفة - أي التضارب بالسيوف- ، فاختار جساس الصراع فاصطرعا ، وأبطأ كل واحد منهما على أصحاب حيه ، وطلبوهما فأصابوهما وهما يصطرعان ، وقد كاد جساس يصرعه ففرقوا بينهما.

ثم التقوا بعنيزة فتكافأ الحيان، ثم التقوا بالقصيبات وكانت الدائرة على بكر ، وقتل في ذلك اليوم همام بن مرة أخو جساس ، فمر به مهلهل مقتولاً فقال له : والله ما قتل بعد كليب قتيل أعز عليّ فقداً منك[1].

ثم كانت بينهم معاودة ووقائع كثيرة، كل ذلك كانت الدائرة فيها لبنى تغلب، ثم إن تغلب جعلت جساساً أشد الطلب، فقال له أبوه مرة: الحق بأخوالك بالشام، فامتنع، فألح عليه أبوه فسيره سراً في خمسة نفر ، وبلغ الخبر مهلهل ، فندب أبا نويرة ومعه ثلاثون رجلاً من شجعان أصحابه ، فساروا مجدين، فأدركوا جساساً فقاتلهم ، فقتل أبو نويرة وأصحابه ولم يبق منهم غير رجلين ، وجرح جساس جرحاً شديداً مات منه ، وقتل أصحابه فلم يسلم غير رجلين أيضاً، فعاد كل واحد من السالمين إلى أصحابه.

---

[1] أيام العرب في الجاهلية، محمد أحمد جاد المولى بك، ط1، 1942، ص156.

فلما سمع مرة بقتل ابنه جساس قال: إنما يحزنني أن كان لم يقتل منهم أحداً، فقيل له: إنه قتل بيده أبا نويرة رئيس القوم، وقتل معه خمسة عشر رجلاً ما شركه أحد منا في قتلهم، وقتلنا نحن الباقين، فقال: ذلك مما يسكن قلبي عن جساس.

فلما قتل جساس أرسل أبوه مرة إلى مهلهل: إنك قد أدركت ثأرك وقتلت جساساً فاكفف عن الحرب، ودع اللجاج والإسراف، فهو أصلح للحيين وأنكأ لعدوهم، فلم يجب إلى ذلك.

ثم إن بنى بكر اجتمعوا إلى الحارث بن عباد، وقالوا له: قد فني قومك ! فأرسل بجيراً ابن أخيه إلى مهلهل وقال له: قل له: إني قد اعتزلت قومي لأنهم ظلموك، وخليتك وإياهم ، وقد أدركت ثأرك وقتلت قومك. فأتاه بجبر فهمّ المهلهل بقتله ، فقال له امرؤ القيس بن أبان – وكان من أشراف بنى تغلب وكان على مقدمتهم زمناً - : لا تفعل ، فوالله لئن قتله ليقتلن به منكم كبش ، لا يسأل عن خاله من هو ؟ وإياك أن تحقر البغي ، فإن عاقبته وخيمة ، وقد اعتزلنا عمه وأبوه وأهل بيته. فأبى مهلهل إلا قتله، فطعنه بالرمح وقتله وقال له: (بؤ بشسع نعل كليب)! فلما بلغ قتله الحارث – وكان من أحلم أهل زمانه وأشدهم بأساً- قال: نعم القتيل قتيل أصلح بين ابني وائل ! فقيل له: إنما قتله بشسع نعل كليب، فلم يقبل ذلك.

وأرسل الحارث إلى مهلهل: إن كنت قتلت بجير بكليب، وانقطعت الحرب بينكم وبين

إخوانكم فقد طابت نفسي بذلك. فأرسل إليه مهلهل: إنما قتلته بشسع نعل كليب ! فغضب الحارث ودعا بفرسه - وكانت تسمى النعامة - فجز ناصيتها وهلب ذنبها- الهلب: الشعر كله وقيل في الذنب وحده.-

ثم ارتحل الحارث مع قومه، حتى نزل مع جماعة بكر بن وائل، وعليهم يومئذ الحارث بن همام، فقال الحارث بن عباد له : إن القوم مستقلون قومك ، وذلك زادهم جرأة عليكم ، فقاتلهم بالنساء ، قال له الحارث بن همام : وكيف قتال النساء ؟ فقال : قلد كل امرأة إداوة من ماء ، وأعطها هراوة ، واجعل جمعهن من ورائكم ، فإن ذلكم يزيدكم اجتهاداً ، وعلموا قومكم بعلامات يعرفنها ، فإذا مرت امرأة على صريع منكم عرفته بعلامته فسقته من الماء ونعشته ، وإذا مرت على رجل من غيركم ضربته بالهراوة فقتلته ، وأتت عليه.

فأطاعوه، وحلقت بنو بكر يومئذ رؤوسها، استبسالاً للموت ، وجعلوا ذلك علامة بينهم وبين نسائهم ، وقال جحدر بن ضبيعة- وإنما سمي جحدراً لقصره - : لا تحلقوا رأسي ، فإني رجل قصير ، ولا تشينوني ، ولكن أشتريه منكم بأول فارس. يطلع عليكم من القوم، فطلع ابن عناق فشد عليه فقتله.

واقتتل الفرسان قتالا شديداً ، وانهزمت بنو ثغلب ، ولحقت بالظعن بقية يومها وليلتها ، واتبعهم سرعان بكر بن وائل ، وتخلف الحارث بن عباد ، فقال لسعد بن مالك : أتراني ممن وضعته الحرب ! فقال : لا ، ولكن لا مخبأ لعطر بعد عروس.

وأسر الحارث مهلهلاً بعد انهزام الناس وهو لا يعرفه، فقال له: دلني على المهلهل. قال: ولي دمي ؟ فقال: ولك دمك، قال: ولى ذمتك وذمة أبيك ؟ قال: نعم ، ذلك لك. قال المهلهل- وكان ذا رأي ومكيدة- : فأنا مهلهل خدعتك عن نفسي ، والحرب خدعة، فقال : كافئني بما صنعت لك بعد جرمك ودلني على كفء لبجير ، فقال : لا أعلمه إلا امرأ القيس بن أبان ،هذاك علمه. فجز ناصيته وأطلقه ، وقصد امرئ القيس فشد عليه فقتله.[1] فلما رجع مهلهل بعد الوقعة والأسر إلى أهله جعل النساء والوالدان يستخبرونه: تسأل المرأة عن زوجها وابنها وأخيها، والغلام عن أبيه وأخيه ،ثم إن مهلهلاً قال لقومه : قد رأيت أن تبقوا على قومكم ، فإنهم يحبون صلاحكم ، وقد أتت على حربكم أربعون سنة ، وما لمتكم على ما كان من طلبكم ، فلو مرت هذه السنون في رفاهية عيش لكانت تمل من طولها ، فكيف وقد فني الحيان وثكلت الأمهات ويتم الأولا د ، ورب نائحة لا تزال تصرخ في النواحي ، ودموع لا ترفأ ، وأجساد لا تدفن ، وسيوف مشهورة ، ورماح مشرعة ، وإن القوم سيرجعون إليكم غداً بمودتهم ومواصلتهم ، وتتعطف الأرحام حتى تتواصوا ، أما أنا فما تطيب نفسي أن أقيم فيكم، ولا أستطيع أن أنظر إلى قاتل كليب، وأخاف أن أحملكم على الاستئصال ، وأنا سائر عنكم إلى اليمن.

[1] أيام العرب في الجاهلية، محمد أحمد جاد المولى بك، ط1، 1942، ص163.

ثم خرج حتى لحق بأرض اليمن، نخطب إليه أحدهم ابنته فأبى أن يفعل، فأكرهوه وساقوا إليه أدَماً في صداقها فأنكحها إياه وقال :

أنْكَحَهَا فَقْدُهَا الأَرَاقِمَ فِي جنبٍ وَ كانَ الحباءُ منْ أدمِ

لوْ بأبا نينِ جاءَ يخطبها ضُرِّجَ مَا أنْفُ خَاطِبٍ بِدَمِ

أصبحتُ لا منفساً أصبتُ وَ لاَ أُبْتُ كَرِيماً حُرّاً مِنَ النَّدَمِ

هانَ على تغلبَ بما لقيتْ أختُ بني المالكينَ منْ جشمِ

لَيْسُوا بِأَكْفَائِنَا الكِرَامِ وَلاَ يغنونَ منْ عيلة وَ لاَ عدم[1]

وكان قد بلغ قبائل بكر وتغلب زواج سليمى في مذحج ، وكان بين القومين منافسة ونفور، فغضبوا وأنفوا، وقصدوا بلاد القوم فأخذوا المرأة وأرجعوها إلى أبيها بعد أن أسروا زوجها.

وملت جموع تغلب الحرب فصالحوا بكراً، ورجعوا إلى بلادهم ، وتركوا الفتنة ، ولم يحضر المهلهل صلحهم ، ثم اشتاق إلى أهله وقومه ، ولجت عليه ابنته سليمي بالمسير إلى الديار ، فأجابها إلى ذلك ، ورجع نحو قومه ، حتى قرب من قبر أخيه كليب ، وكانت عليه قبة رفيعة ، فلما رآه خنقته العبرة ، وكان تحت بغل نجيب، فلما رأى البغل القبر في غلس

---

[1] أيام العرب في الجاهلية، محمد أحمد جاد المولى بك، ط1، 1942، ص165.

الصبح نفر منه هارباً ، فوثب عنه المهلهل ، وضرب عرقوبيه بالسيف ، وسار بعد ذلك حتى نزل في قومه زماناً ، وما وكده – أي قصده - إلا الحرب ، ولا يهم بصلح ، ولا يشرب خمراً ، ولا يلهو بلهو ، ولا يحل لأمته ، ولا يغتسل بماء ، حتى كان جليسه يتأذى منه من رائحة صدأ الحديد.

فلما كان ذات يوم دخل عليه رجل من تغلب اسمه ربيعة بن الطفيل، وكان له نديماً، فلما رأى ما به قال : أقسمت عليك أيها الرجل لتغتسلن بالماء البارد ، ولتبلن ذوائبك بالطيب ! فقال المهلهل: هيهات ! هيهات ! يا بن الطفيل ، هبلتني إذا يميني ، وكيف باليمين التي آليت ! كلاً أو أقضي من بكر أربى ، ثم تأوه وزفر.

ونقض الصلح، وعادت الحرب، ثم إن المهلهل أغار غارة على بنى بكر، فظفر به عمرو بن مالك أحد بنى قيس بن ثعلبة، فأسره وأحسن إساره، فمر عليه تاجر يبيع الخمر - وكان صديقاً للمهلهل- فأهدى إليه وهو أسير زقاً من خمر، فاجتمع شبان من قيس بن ثعلبة ونحروا عنده بكراً، وشربوا عند مهلهل في بيته الذي أفرد له ، فلما أخذ فيهم الشراب تغنى مهلهل بشعر ناح فيه على أخيه.

فلما سمع عوف ذلك غاظه وقال: لا جرم إن الله على نذراً، إن شرب عندي قطرة ماء ولا خمر حتى يورد الخضير – أي لا يشرب شيئاً قبل خمسة أيام -، فقال له أناس من

قومه: بئس ما حلفت ! فبعثوا الخيول في طلب البعير فأتوا به بعد ثلاث أيام، وكان المهلهل مات عطشاً[1].

❖ حرب خزاعة وجرهم:

كانت خزاعة تريد احتلال مكة فنازعت جرهم عليها فحدث قتالاً شديداً بينهم أدى إلى هزيمة جرهم وخروجهم من مكة، فأرادت جرهم كيداً لخزاعة فدفنت زمزم فكانت خزاعة إذا جاء وقت الحج تأتي بالماء من خارج مكة.

قال ابن إسحاق: فخرج عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي بغزالي الكعبة، وبحجر الركن الأسود فدفنها في بئر زمزم وانطلق هو ومن معه من جرهم إلى اليمن فحزنوا حزناً شديداً وفي ذلك قال عمرو:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامـــــــــــــــر

بلى نحن كنا أهلها فأبادـــــــــــــــــــــا صروف الليالي والجدود العواثر

واستبدت خزاعة بأمر مكة دون بني بكر.[2]

---

[1] أيام العرب في الجاهلية ، لمحمد جاد المولى وصاحباه ، ص 142

([2]) (ابن هشام باختصار 244/1).

وكان سيد خزاعة عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف أبوخزاعة فهو سيدهم شرفاً ومالاً، وكان يطعم الحجيج ويسقي الحجيج وحده وكانت كلمته لا ترد مهما كان رأيه خطأً كان أم صواباً.

فخرج عمرو ابن لحي إلى الشام فلما وصل مأرب وبها العماليق وجدهم يعكفون على أصنام لهم فتعجب ابن لحي وسألهم عن ذلك فقالوا هؤلاء يعينونا على الحاجة وينزلون المطر إذا استسقيناهم ويقربونا إلى اللّٰه زلفى، فسر عمرو ابن لحي سروراً عظيماً وطلب منهم أن يعطوه صنماً، فأعطوه صنماً اسمه هبل، فدخل به مكة ومعه ثلاثمائة وستون صنماً وأمر قومه أن يعبدوها فعبدوها دون تردد، ثم أعطى كل قبيلة صنماً تعبده في موطنها فأعطى بني كلب (ود) وأعطى بني هذيل (سواع) وأعطى أهل جرش (يغوث) وأعطى همزان (يعوق) وأعطى اليمن (نسر) وهذه كانت أصنام يعبدها قوم نوح وقال الله ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾، فعثرت قريش على هذه الأصنام فأخرجتها وأعطتها للقبائل كما ذكرنا، وكانت قريش تعبد (هبل).

❖يوم ذي قار :

ذي قار ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة بينها وبين واسط. وبالقرب منه مواضع منها حنو ذي قار وقراقر وجبايات ذي العجرم وجذوان وبطحاء ذي قار. ويقع حنو ذي قار على ليلة من ذي قار.[1]

وكان من أعظم أيام العرب ، وأبلغها في توهين أمر الأعاجم ، وهو يوم لبني شيبان ، وهو أول يوم انتصرت فيه العرب على العجم . وخبره كالتالي:

ذكر كسرى بن هرمز يوماً الجمال العربي ، وكان في مجلسه رجل عربي يقال له : زيد بن عدي ، وكان النعمان قد غدر بأبيه وحبسه ثم قتله ، فقال له : أيها الملك العزيز إن خادمك النعمان بن المنذر عنده من بناته وأخواته وبنات عمه وأهله أكثر من عشرين امرأة على هذه الصفة.[2]

وأرسل كسرى زيداً هذا إلى النعمان ومعه مرافق لهذه المهمة ، فلما دخلا على النعمان قالا له : إن كسرى أراد لنفسه ولبعض أولاده نساءاً من العرب ، فأراد كرامتك ، وهذه هي الصفات التي يشترطها في الزوجات . فقال له ا لنعمان : أما في مها السواد وعين فارس ما يبلغ به كسرى حاجته ؟ يا زيد سلّم على كسرى ، قل له : إن النعمان لم يجد فيمن يعرفهن هذه الصفات ، وبلغه عذري . ووصل زيد إلى كسرى فأوغر صدره ،

---

[1]المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (الجزء الأول ص658

[2] أيام العرب في الجاهلية ، لمحمد جاد المولى وصاحباه ، ص 16.

وقال له : إن النعمان يقول لك : ستجد في بقر العراق من يكفينك[1].

فطار صواب كسرى وسكت لكي يأمن النعمان بوائقه ، ثم أرسل إلى النعمان يستقدمه ، فعرف النعمان أنه مقتول لا محالة ، وخرج يبحث في العرب عن قبيلة تجيره من كسرى، فكانت القبائل تمتنع عن إجارته خوفاً من بطش كسرى، فذهب إلى بني شيبان في بادية العراق، ولقي سيدهم هانئ بن مسعود الشيباني، وكان سيداً منيعاً، فاستجار به فأجاره، وقال له: «قد لزمني ذمامك، وأنا مانعك ممّا أمنع نفسي وولدي منه، ما بقي من عشيرتي الأدنين رجل، ولكنّ ذلك غير نافعك، لأنه مهلكي ومهلكك، وعندي لك رأي، لست أشير به عليك لأدفعك عما تريده من مجاورتي، ولكنه الصواب. فقال: هاته، فقال: «إن كل أمر يِجمل بالرجل أن يكون عليه إلاّ أن يكون بعد المُلكِ سُوقة، والموت نازل بكل أحد، ولأن تموت كريماً خيرٌ من أن تتجرّع الذل أو تبقى سوقة بعد المُلك، هذا إن بقِيتَ، فامض إلى صاحبك، واحمل إليه هدايا ومالاً، وألق بنفسك بين يديه، فإمّا أن يصفح عنك فتعود ملكاً عزيزاً، وإما أن يقتلك، فالموت خير من أن يتلاعب بك صعاليك العرب، ويتخطفك ذئابها، وتأكل مالك وتعيش فقيراً مجاوراً أو تقتل مقهوراً». فقال النعمان:

---

[1] أيام العرب في الجاهلية ، لمحمد جاد المولى وصاحباه ، ص21.

«فكيف بحرمي؟ قال: هنّ في ذمتي لا يَخلص إليهن حتى يخلص إلى بناتي، فقال: هذا وأبيك الرأي الصحيح ولن أجاوزه». [1]

فذهب النعمان إلى كسرى حاملاً له الأموال والهدايا، فسجنه ثم قتله.

وأقام كسرى على الحيرة ملكاً جديداً هو إياس بن قبيصة الطائي ، وكلفه أن يتصل بهانئ بن مسعود ويحضر ما عنده من نساء النعمان وسلاحه وعتاده ، فلما تلقى هانئ خطاب كسرى رفض تسليم الأمانات ، فخيره كسرى إما أن يعطي ما بيده ، أو أن يرحل عن دياره ، أو أن يحارب ، فاختار الحرب ، وبدأ يعد جيشاً من بكر بن وائل ومن بني شيبان ومن عجل ويشكر والنمر بن قاسط وبني ذهل.

وفي أثناء ذلك جمع كسرى نخبة من أبطال الفرس ومن قبائل العرب التي كانت موالية له وخصوصاً قبيلة إياد ، ووجههم ليجتاحوا هانئاً ويحضروه صاغراً إلى كسرى.

فلما وصل جيش كسرى وحلفاؤهم من العرب أرسلت قبيلة إياد إلى هانئ : نحن قدمنا إلى قتالك مرغمين ، فهل نحضر إليك ونفرّ من جيش كسرى؟ فقال لهم : بل قاتلوا مع جنود كسرى ، واصمدوا إلينا أولاً ، ثم انهزموا في الصحراء ، وإذ ذاك ننقض على جيش كسرى ونمزقهم.[2]

سار هانئ بن مسعود حتى انتهى إلى ذي قار فنزل به. وأقبل النعمان بن زرعة حتى نزل

---

[1] أيام العرب في الجاهلية ، لمحمد جاد المولى وصاحباه ، ص23.

[2] أبطال ومواقف ، لأحمد فرح عقيلان ،ص 11 ، وأيام العرب في الجاهلية لمحمد أبو الفضل وآخرين ،ص6.

على ابن أخته مرة بن عمرو من بني عجل فحمد الله النعمان وأثنى عليه ثم قال إنكم أخوالي وأحد طرفي وإن الرائد لا يكذب أهله وقد أتاكم مإلا قبل لكم به من أحرار فارس وفرسان العرب والكتيبتان الشهباء والدوسر وإن في هذا الشر خيارا. ولأن يفتدي بعضكم بعضا خير من أن تصطلموا فانظروا هذه الحلقة فادفعوها وادفعوا رهنا من أبنائكم إليه بما أحدث سفهاؤكم. فقال له القوم: ننظر في أمرنا.

انتظرت بكر بن وائل حتى مقدم ساداتهم، فقدم أولا حنظلة بن ثعلبة بن سيار العجلي

فقالوا: يا أبا معدان قد طال انتظارنا وقد كرهنا أن نقطع أمرا دونك وهذا ابن أختك النعمان بن زرعة قد جاءنا والرائد لا يكذب أهله .

قال: فما الذي أجمع عليه رأيكم واتفق عليه ملؤكم.؟

قالوا: قال إن اللخي أهون من الوهي وإن في الشر خيارا ولأن يفتدي بعضكم بعضا خير من أن تصطلحوا جميعا .

قال حنظلة: فقبح الله هذا رأيا لا تجر أحرار فارس أرجلها ببطحاء ذي قار وأنا أسمع الصوت. ثم أمر بقبته فضربت بوادي ذي قار ثم نزل ونزل الناس فأطافوا به.فقال: لا أرى غير القتال، فإنا إن ركبنا الفلاة متنا عطشا، وإن أعطينا ما بأيدينا تقتل مقاتلتنا وتسبى ذرارينا. ثم قال لهانئ بن مسعود: يا أبا أمامة إن ذمتكم ذمتنا عامة وإنه لن يوصل

إليك حتى تفنى أرواحنا فأخرج هذه الحلقة ففرقها بين قومك فإن تظفر فسترد عليك وإن تهلك فأهون مفقود. فأمر بها فأخرجت ففرقها بينهم ثم قال حنظلة للنعمان: لولا أنك رسول لما أبت إلى قومك سالما[1]. فرجع النعمان إلى أصحابه فأخبرهم بما رد عليه القوم فباتوا ليلتهم مستعدين للقتال وباتت بكر بن وائل يتأهبون للحرب، وقد استقوا الماء لنصف شهر تحسبا للمعركة.

قبل أن تبدأ الحرب، جرت المراسلات بين بني شيبان وقبائل العرب، كما جرت المراسلات بين قبائل بكر نفسها، فجاءت الوفود من بني بكر بن وائل في اليمامة والبحرين، وكذلك طلب الأسرى من بني تميم عند بني شيبان منهن أن يقاتلوا معهم قائلين: نقاتل معكم، فإنا نذب عن أنفسنا، وقد أرسل قوم من طيء والعباد وإياد وسائر من كان مع العجم من العرب سرا إلى بكر يعلمهم أن انتصارهم على الفرس أحب إليهم، وقال رسولهم: أي الأمرين أعجب إليكم؟ أن نطير تحت ليلتنا هذه، فنذهب؟ أو نقيم ونفر حين تلاقون القوم؟ قالوا: بل تقيمون، فإذا التقى الناس انهزمتم بهم.[2]

فلما أصبحوا أقبلت الأعاجم نحوهم وأمر حنظلة بالظعن جميعا فوقفها خلف الناس ثم قال: يا معشر بكر بن وائل قاتلوا عن ظعنكم أو دعوا فأقبلت الأعاجم يسيرون على تعبئة. وكان ربيعة بن غزالة السكوني ثم التجيبي يومئذ هو وقومه نزولا في بني شيبان فقال: يا

[1] أيام العرب في الجاهلية ، لمحمد جاد المولى وصاحباه ، ص30.

[2] أيام العرب في الجاهلية ، لمحمد جاد المولى وصاحباه ، ص33.

بني شيبان أما لو أني كنت منكم لأشرت عليكم برأي مثل عروة العلم فقالوا: فأنت والله من أوسطنا فأشر علينا فقال: لا تستهدفوا لهذه الأعاجم فتهلككم بنشابها ولكن تكردسوا لهم كراديس فيشد عليهم كردوس فإذا أقبلوا عليه شد الآخر فقالوا: فإنك قد رأيت رأيا ففعلوا.

فلما تقارب القوم والتقى الزحفان قام حنظلة بن ثعلبة فقال: يا معشر بكر بن وائل إن النشاب الذي مع الأعاجم يعرفكم فإذا أرسلوه لم يخطئكم فعاجلوهم باللقاء وابدأوهم بالشدة. ثم قام إلى وضين راحلة امرأته فقطعه ثم تتبع الظعن يقطع وضنهن لئلا يفر عنهن الرجال، وقال :ليقاتل كل رجل منكم عن حليلته. فسمي يومئذ مقطع الوضين[1]. ثم ضرب قبة على نفسه ببطحاء ذي قار، وآلى لا يفر حتى تفر القبة، وقطع سبعمائة رجل من شيبان أيدي أقبيتهم من مناكبها لتخف أيديهم لضرب السيوف. ثم قام هانئ بن مسعود فقال: يا قوم مهلك معذور خير من نجاء معرور وإن الحذر لا يدفع القدر وإن الصبر من أسباب الظفر المنية ولا الدنية واستقبال الموت خير من استدباره والطعن في الثغر خير وأكرم من الطعن في الدبر يا قوم جدوا فما من الموت بد فتح لو كان له رجال أسمع صوتا ولا أرى قوما يا آل بكر شدوا واستعدوا وإلا تشدوا تردوا[2] .

---

1 أيام العرب في الجاهلية ، لمحمد جاد المولى وصاحباه ، ص30.

2 أيام العرب في الجاهلية ، لمحمد جاد المولى وصاحباه ، ص30.

ثم قام شريك بن عمرو بن شراحيل بن مرة بن همام فقال: يا قوم إنما تهابونهم أنكم ترونهم عند الحفاظ أكثر منكم وكذلك أنتم في أعينهم فعليكم بالصبر فإن الأسنة تردي الأعنة يا آل بكر قُدُما قُدُما.

كانت بنو عجل في الميمنة بإزاء خنابرين وعليهم حنظلة بن ثعلبة. وبنو شيبان في الميسرة بإزاء كتيبة الهامرز، وعليهم بكر بن يزيد بن مسهر. وباقي بكر بن وائل في القلب وعليهم هانئ بن مسعود. فخرج أسوار من الأعاجم مسور، في أذنيه درتان، من كتيبة الهامرز يتحدى الناس للمبارزة، فنادى في بني شيبان فلم يبرز له أحد حتى إذا دنا من بني يشكر برز له يزيد بن حارثة أخو بني ثعلبة بن عمرو فشد عليه الرمح، فطعنه فدق صلبه، وأخذ حليته وسلاحه. ثم إن القوم اقتتلوا صدر نهارهم أشد قتال رآه الناس، وحملت ميسرة بكر وعليها حنظلة على ميمنة الجيش، وحملت ميمنة بكر وعليها يزيد بن مسهر على ميسرة الجيش، وخرج عليهم كمين كانوا اعدوه للفرس وعليهم يزيد بن حمار فشدوا على قلب الجيش، وولت إياد منهزمة كما وعدتهم. فشد الحوفزان واسمه الحارث بن شريك - على الهامرز فقتله، وقتلت بنو عجل خنابرين، وضرب الله وجوه الفرس فانهزموا، وتبعتهم بكر بن وائل، فلحق مرثد بن الحارث، النعمان بن زرعة، فأهوى له طعناً، فسبقه النعمان بصدر فرسه فأفلته، ولحق أسود بن بجير العجلي النعمان بن زرعة، فقال له: يا نعمان، هلم إلي، فأنا خير آسر لك، وخير لك من العطش. قال: ومن أنت؟ قال: الأسود بن بجير، فوضع يده في

يده، فجز ناصيته، وخلى سبيله، وحمله الأسود على فرس له، وقال له: انج على هذه، فإنها أجود من فرسك، وجاء الأسود بن بجير على فرس النعمان بن زرعة، وأفلت إياس بن قبيصة على فرس له، وقتل خالد بن يزيد البهراني، قتله الأسود بن شريك بن عمرو، وقتل يومئذ عمرو بن عدي بن زيد العبادي الشاعر أخو زيد بن عدي صاحب النعمان.

ثم كان اليوم الثاني من القتال فجزعت الفرس من العطش، فصارت إلى الجبابات وأتبعتهم بكر بن وائل إلى الجبابات فعطش الأعاجم فمالوا إلى بطحاء ذي قار وبها اشتدت الحرب، فأتبعتهم بكر بن وائل يقتلونهم بقية يومهم وليلتهم، حتى أصبحوا من الغد، وقد شارفوا السواد ودخلوه، فذكروا أن مائة من بكر بن وائل، وسبعين من عجل، وثلاثين من أفناء بكر بن وائل، أصبحوا وقد دخلوا السواد في طلب القوم، فلم يلفت منهم كبير أحد وأقبلت بكر بن وائل على الغنائم فقسموها بينهم، وقسموا تلك اللطائم بين نسائهم.

فكان إياس بن قبيصة أول من أتى كسرى بعد الهزيمة وكان لا يأتيه أحد بهزيمة جيش إلا نزع كتفيه، فلما أتاه إياس سأله عن الخبر، فقال: هزمنا بكر بن وائل، فأتيناك بنسائهم، فأعجب بذلك كسرى وأمر له بكسوة، وإن إياساً استأذنه عند ذلك، فقال: إن أخي مريض بعين التمر، فأردت أن آتيه، وإنما أراد أن يتنحى عنه ويفر، فأذن له كسرى، فترك فرسه "الحمامة" وهي التي كانت عند أبي ثور بالحيرة، وركب نجيبة فلحق بأخيه، ثم أتى كسرى رجل من أهل الحيرة وهو بالخورنق، فسأل: هل دخل على الملك أحد؟

فقالوا: نعم، إياس، فقال: ثكلت إياساً أمه! وظن أنه قد حدثه بالخبر، فدخل عليه فحدثه بهزيمة القوم وقتلهم، فأمر به فنزعت كتفاه[1].

وعزل كسرى أبرويز بعد خسارة المعركة إياس بن قبيصة عن حكم الحيرة وعين عليها حاكما فارسيا هو آزاذبه بن ماهان الهمذاني، إلا أنه لم يتمكن من إعادة الثقة التي كانت بين المناذرة والأكاسرة، ومن تحسين العلاقة التي ساءت بين العرب والفرس، فتمردت بكر بن وائل التي استقلت بالبحرين فتبعها قبائل في أواسط الجزيرة العربية. مما اضطر الفرس أن يعيدوا حكم الحيرة إلى أحد أبناء النعمان وهو المنذر المغرور في محاولة لعودة الأوضاع إلى ماقبل المعركة ولكن الأمور تغيرت بظهور دولة الخلافة وبدء حروب الردة.

وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنه لما بلغه انتصار قبائل بكر بقيادة هانئ بن مسعود الشيباني[2] على عساكر الفرس قال : (هذا أول يوم انتصف فيه العرب من العجم ، وبي نصروا).

ولقد كان لنصر ذي قار الأثر البالغ في ذياع صيت هانئ بن مسعود الشيباني، و زيادة الفخر و الشرف لبني بكر ابن وائل[3]، حتى نظمت الأشعار التي تناقلوها كابرا عن كابر حتى أنستهم غيرها من المفاخر، فيقول الأعشى :

---

[1] أيام العرب في الجاهلية ، لمحمد جاد المولى وصاحباه ، ص34.

[2] العقد الفريد لابن عبد ربه، ج3، ص 383.

[3] تاريخ الطبري، ج1 ص 1028.

لمّا التقَيْنَا كَشَفْنَا عَنْ جَماجِمنا   ليعلموا أنّنا بكرٌ، فينصرفوا

قَالُوا البقِيّة ، وَالهِنْدِيُّ يَحصُدُهم،   وَلا بَقِيّة إلاّ النّارُ، فَانْكَشَفُوا

وجندُ كسرى غداة الحنوِ صبحهمْ   مِنّا كَتائبُ تُزْجي المَوْتَ فانصَرَفُوا

جحاجحٌ، وبنو ملكٍ غطارفة   من الأعاجمِ، في آذانها النُّطفُ

إذا أمَالُوا إلى النُّشّابِ أيْدِيَهُمْ،   مِلنا ببِيضٍ، فظَلّ الهَامُ يُختَطَفُ

وَخَيلُ بَكْرٍ فَما تَنفَكّ تَطحَنُهمْ   حتى تولوا، وكادَ اليومُ ينتصفُ

لَوْ أنّ كُلّ مَعَدٍّ كانَ شارَكَنَا   في يومِ ذي قارَ ما أخطاهمُ الشّرفُ[1]

وقال :

فِدىً لِبَني ذُهلِ ابنِ شَيبانَ ناقَتي   وَراكِبُها يَومَ اللِقاءِ وَقَلَّتِ

هُمُ ضَرَبوا بِالحِنوِ حِنوِ قُراقِرٍ   مُقَدِّمَةَ الهامَرزِ حَتّى تَوَلَّتِ

فَلِلَّهِ عَينا مَن رَأى مِن عِصابَةٍ   أَشَدَّ عَلى أيدي السُقاةِ مِنَ الَّتي

أَتَتهُم مِنَ البَطحاءِ يَبرُقُ بَيضُها   وَقَد رُفِعَت راياتُها فَاستَقَلَّتِ

[1] ديوان الأعشى، محمد حسين، المطبعة النموذجية، ص 311.

فَثاروا وَثُرنا وَالمَنِيَّةُ بَينَنا وَهاجَت عَلَينا غَمرَةٌ فَتَجَلَّتِ

فَصَبَّحَهُم بِالحِنوِ حِنوِ قُراقِرٍ وَذي قارِها مِنها الجُنودُ فَفُلَّتِ

عَلى كُلِّ مَحبوكِ السَراةِ كَأَنَّهُ عُقابٌ هَوَت مِن مَرقَبٍ إِذ تَعَلَّتِ

فَجادَت عَلى الهامَرزِ وَسطَ بُيوتِهِم شَآبيبُ مَوتٍ أَسبَلَت وَاِستَهَلَّتِ

تَناهَت بَنو الأَحرارِ إِذ صَبَرَت لَهُم فَوارِسُ مِن شَيبانَ غُلبٌ فَوَلَّتِ[1]

والحق أن انتصار العرب على العجم في ذي قار كان نواة لمعركة القادسية التي أعز الله فيها قبائل العرب بنور الإسلام ، ونبوة محمد عليه الصلاة والسلام .

[1] ديوان الأعشى، محمد حسين، المطبعة النموذجية،ص 259.

❖ يوم الصفقة :

أما يوم الصفقة وسببه فإن باذان ، نائب كسرى أبرويز بن هرمز باليمن ، أرسل إليه حملا من اليمن . فلما بلغ الحمل إلى نطاع من أرض نجد أغارت تميم عليه وانتهبوه وسلبوا رسل كسرى وأساورته[1] . فقدموا على هوذة بن علي الحنفي صاحب اليمامة مسلوبين ، فأحسن إليهم وكساهم . وقد كان قبل هذا إذا أرسل كسرى لطيمة تباع باليمن يجهز رسله ويخفرهم ويحسن جوارهم ، وكان كسرى يشتهي أن يراه ليجازيه على فعله . فلما أحسن أخيرا إلى هؤلاء الرسل الذين أخذتهم تميم قالوا له : إن الملك لا يزال يذكرك ويؤثر أن تقدم عليه ، فسار معهم إليه . فلما قدم عليه أكرمه وأحسن إليه ، وجعل يحادثه لينظر عقله ، فرأى ما سره ، فأمر له بمال كثير ، وتوجه بتاج من تيجانه وأقطعه أموالا بهجر . [2]

وكان هوذة نصرانيا ، وأمره كسرى أن يغزو هو والمكعبر مع عساكر كسرى بني تميم ، فساروا إلى هجر ونزلوا بالمشقر . وخاف المكعبر وهوذة أن يدخلا بلاد تميم لأنها لا تحتملها العجم وأهلها بها ممتنعون ، فبعثا رجالا من بني تميم يدعونهم إلى الميرة ، وكانت شديدة ، فأقبلوا على كل صعب وذلول ، فجعل المكعبر يدخلهم الحصن خمسة خمسة وعشرة عشرة وأقل وأكثر ، يدخلهم من باب على أن يخرجهم من آخر ، فكل من دخل ضرب عنقه[3]

---

[1] أيام العرب في الجاهلية ، لمحمد جاد المولى وصاحباه ، ص 3.
[2] أيام العرب في الجاهلية ، لمحمد جاد المولى وصاحباه ، ص 3.
[3] أيام العرب في الجاهلية ، لمحمد جاد المولى وصاحباه ، ص 4.

. فلما طال عليهم ورأوا أن الناس يدخلون ولا يخرجون بعثوا رجالا يستعلمون الخبر ، فشد رجل من عبس فضرب السلسلة فقطعها وخرج من كان بالباب . فأمر المكعبر بغلق الباب وقتل كل من كان بالمدينة ، وكان يوم الفصح ، فاستوهب هوذة منه مائة رجل فكساهم وأطلقهم يوم الفصح . فقال الأعشى من قصيدة يمدح هوذة :

بهم يقرب يوم الفصح ضاحية يرجو الإله بما أسدى وما صنعا

فصار يوم المشقر مثلا ، وهو يوم الصفقة إصفاق الباب ، وهو إغلاقه . وكان يوم الصفقة وقد بعث النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو بمكة بعد لم يهاجر .

❖ يوم خزاز:

وكان من حديثه أن ملكاً من ملوك اليمن كان في يديه أسرى من مضر وربيعة وقضاعة، فوفد عليه وفدٌ من وجوه بني معدّ، منهم: سدوس بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة، وعوف بن محلم بن ذهل بن شيبان، وعوف ابن عمرو بن جشم بن ربيعة بن زيد مناة بن عامر اضحيان، وجشم بن ذهل بن هلال بن ربيعة بن زيد ابن عامر الضحيان[1]، فلقيهم رجل من بهراء يقال له عبيد بن قراد، وكان في الأسرى، وكان شاعراً، فسألهم أن يدخلوه في عدة من يسألون فيه، فكلموا الملك فيه وفي الأسرى، فوهبهم لهم، فقال عبيد بن قراد البهراوي:

---

[1] أيام العرب في الجاهلية ، لمحمد جاد المولى وصاحباه ، ص109.

نفسي الفداء لعوف الفعال ** وعوف ولاّبن هلالٍ جشم

تداركني بعدما قد هوي ** ت مستمسكاً بعراقي الوذم

ولولا سدوسٌ وقد شمّرت ** بي الحرب زلّت بنعلي القدم

وناديت بهراء كي يسمعوا ** وليس بآذانهم من صمم

ومن قبلا عصمت قاسطٌ ** معدّاً إذا ما عزيزٌ أزم

فاحتبس الملك عنده بعض الوفد رهينةً وقال للباقين: ايتوني برؤساء قومكم لآخذ عليهم المواثيق بالطاعة لي وإلا قتلت أصحابكم. فرجعوا إلى قومهم فأخروهم الخبر، فبعث كليب وائل إلى ربيعة فجمعهم، واجتمعت عليه معد، وهو أحد النفر الذين اجتمعت عليهم معد، على ما نذكره في مقتل كليب. فلما اجتمعوا عليه سار بهم وجعل على مقدمته السفاح التغلبي، وهو سلمة بن خالد بن كعب بن زهير بن تيم بن أسامة بن مالك بن بكر ابن حبيب بن تغلب، وأمرهم أن يوقدوا على خزاز ناراً ليهتدوا بها، وخزاز جبل بطخفة ما بين البصرة إلى مكة، وهو قريب من سالع، وهو جبل أيضاً، وقال له: إن غشيك العدو فأوقد نارين. فبلغ مذحجاً اجتماع ربيعة ومسيرها فأقبلوا بجموعهم واستنفروا من يليهم من قبائل اليمن وساروا إليهم، فلما سمع أهل تهامة بمسير مذحج انضموا إلى ربيعة، ووصلت مذحج إلى خزام ليلاً، فرفع السفاح نارين. فلما رأى كليب النارين اقبل إليهم بالجموع فصبحهم، فالتقوا

بخزاز فاقتتلوا قتالاً شديداً أكثروا فيه القتل، فانهزمت مذحج وانفضت جموعها، فقال السفاح في ذلك:

وليلة بتّ أقود في خزاز ** هديت كتائباً متحيّرات

ضللن من السّهاد وكنّ لولا ** سهاد القوم أحسب هاديات

وقال الفرزدق يخاطب جريراً ويهجوه:

لولا فوارس تغلب ابنة وائل ** دخل العدوّ عليك كلّ مكانٍ

ضربوا الصنائع والملوك وأوقدوا ** نارين أشرفتا على النيران[1]

وقيل: إنه لم يعلم أحد من كان الرئيس يوم خزاز لأن عمرو بن كلثوم، وهو ابن ابنة كليب، يقول:

ونحن غداة أوقد في خزاز ** رفدنا فوق رفد الرافدينا[2]

فلو كان جده الرئيس لذكره ولم يفتخر بأنه رفد، ثم جعل من شهد خزازاً متساندين فقال:

فكنّا الأيمنين إذا التقينا ** وكان الأيسرين بنو أبينا[3].

---

[1] أيام العرب في الجاهلية ، لمحمد جاد المولى وصاحباه ، ص110.

[2] ديوان عمرو بن كلثوم، اميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، ط1، 1991، ص67.

[3] [3]ديوان عمرو بن كلثوم، اميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، ط1، 1991، ص68.

المصادر و المراجع

- ✓ الهيتي ، هادي نعمان (1977) " أدب الأطفال " ، منشورات وزارة الإعلام ، العراق .
- ✓ العاصي ، عربي (1981) " الحيوان في قصص الأطفال " ، الكرمل للدراسات والطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق ، الطبعة الأولى .
- ✓ السواح ، فراس (1981) " مغامرة العقل الأولى - دراسة في الأسطورة - سوريا وبلاد الرافدين " سومر للدراسات والنشر والتوزيع ، نيقوسيا - قبرص ، الطبعة السادسة .
- ✓ بعلوشة ، إبراهيم محمد ، " بحث حول الفن الشعبي وأثره في التكوين النفسي للطفل "، وزارة الإعلام ، الهيئة العامة للاستعلامات ، مصر .
- ✓ شوقي ضيف (2008)، تاريخ الأدب العربي، مصر: دار المعارف.
- ✓ سبتينو موسكاتي، ترجمة: د. السيّد يعقوب بكر (1986)، الحضارات السامية القديمة، بيروت: دار الرقيّ.
- ✓ حسن ظاظا (1990)،الساميّون ولغاتهم، دمشق: دار القلم، بيروت: الدار الشاميّة، الطبعة الثانية.
- ✓ تعريف ومعنى عرب في معجم المعاني الجامع" ، www.almaany.com، اطّلع عليه بتاريخ 17-11-2017.
- ✓ أحمد محمد أمين (5-3-2009)، "العرب والعاربة والمستعربة أصل التسمية وتاريخها "، دورية كان التاريخية، العدد الثالث.
- ✓ عبد الرحمن بن خلدون (2001)، تاريخ ابن خلدون ، بيروت، لبنان: دار الفكر جزء: 2.
- ✓ الصحاح للجوهري، ط4، 1990.
- ✓ نهاية الإرب في فنون الأدب ،النويري شهاب الدين، ط1، 2004.
- ✓ نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب للقلقشندي، ط2، 1980..
- ✓ البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب للمقريزي.
- ✓ اقتضاء الصراط المستقيم ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، ط7، 1999.
- ✓ ديوان حسان بن ثابت، عبد أ مهنا، ط2، 1994.
- ✓ مروج الذهب ومعادن الجوهر، المسعودي، ج2 ،1409هـ.
- ✓ جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج1 ط2، بغداد.
- ✓ الرحيق المختوم صفي الرحمن المباركفوري.

- تاريخ قريش حسين مؤنس، ط1، 1988.
- ابن الأثير، أبي السعادات المبارك بن محمد، النهاية في غريب الحديث والأثر، تح: أبو عبد الرحمة صلاح بن محمد بن عويصة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م، ج3.
- الزبيدي، تاج العروس، ج3.
- عبد الله، الدعوة الإسلامية وحياة البداوة، ط1، 2008.
- الآلوسي، بلوغ الأرب، ج3، 1924.
- الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ج1، 1952.
- الطبري، جامع البيان، ج1، ط1، 2001.
- الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن، تح: أحمد حبيب صقر العاملي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1988م، ج2.
- تاريخ اليعقوبي، ج1، 1993.
- طبقات ابن سعد، ج3، ط1، 2001.
- الجاحظ، الحيوان، ج7، ط2003.
- الشهرستاني، الملل والنحل، ط1، 1948.
- ابن منظور، لسان العرب، ج9، ط1996.
- ابن حبيب، المنمق، ط 1999.
- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج1، ط1، 1987.
- ابن دريد، الاشتقاق.
- ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، 2002.
- ابن الكلبي، جمهرة النسب، مطبعة حكومة الكويت، ط1، 1983.
- فيليب حتي، تاريخ العرب، دار الكشاف، ط1، 2002.
- بروكلمان، تاريخ الشعوب الاسلامية، دار العلم للملايين، ط1، 2005.
- السمعاني، الأنساب، ج5، دار الجنان، ط1988،1.
- الحميري، محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، ط2، تح: إحسان عباس، دار السراج، بيروت، 1980م.
- ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج8، دار الحرمين للطباعة، ط1، 1999.
- ديوان الأعشى، محمد حسين، المطبعة النموذجية.
- البيان و التبيين، الجاحظ، ج6، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، 1998.

- ✓ الأصفهاني، كتاب الأغاني ج 10، دار الكتب المصرية، ط2، 1950.
- ✓ السيرة النبوية لابن هشام، ج1، ط1، المطبعة الخيرية، 1329ه.
- ✓ ديوان عمرو بن كلثوم، اميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، ط1، 1991.
- ✓ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، ج1.
- ✓ أيام العرب في الجاهلية، محمد أحمد جاد المولى بك، ط1، 1942.
- ✓ الدين و الأسطورة عند العرب في الجاهلية، محمد الخطيب، ط 2004.
- ✓ أبطال ومواقف ، لأحمد فرح عقيلان .
- ✓ أيام العرب في الجاهلية لمحمد أبو الفضل وآخرين .
- ✓ العقد الفريد لابن عبد ربه، ج3.
- ✓ تاريخ الطبري، ج1 .
- ✓ ديوان الأعشى، محمد حسين، المطبعة النموذجية.

- ✓ ديوان عمرو بن كلثوم، اميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، ط1، 1991.

الفهرس